هجرة في الجرح

تأملات في أعمال حلمي الزّواتي الشّعرية الكاملة

"فِلـــــــــسْطِينُ وَ فُرسُها الذي تُمطِرُ
سَلاماً وَ أَنبِياء، وَ أَرضُها المُفْعَمَةُ بالعِطْرِ
الإلهي، وَ مآذِنُها المَفْهـــــــورَةُ بِالحُزْن،
وَ أَجْراسُ كَنائِسِها التي تَسْتَصْرِخُ السَّماء.
فِلـــسْطِينُ جُرْحِي الـذي لا يَبْـرأ، وَ مَـا
كَتَبْتُ كَلِمةً تَتَّصِلُ بِها إلاَّ وَجَدتُ رُوحِي
تَتَرفَّقُ عَلى قَلَمِي دَمَاً وَ دمْعاً وَ هَبَّةَ إِباء.
وَ عَهْداً أَبَدِياً إِنْ نَسِيتُكِ يا فُرْسُ فَلْيَنْسَنِي
اللّهُ في مَلَكُوتِه".

شاكر مصطفى

هجرة في الجرح:
تأمّلات في أعمالِ حلمي الزّواتي الشعريةِ الكاملة

بقلم الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى *

«أنتمُ يامَنْ ستظهرونَ بَعْدَ الطُّوفانِ الذي أَغْرَقَنَا
اذكُروا حينَ تتحدّثونَ عن ضَعْفِنا
الزَّمَنَ الأسودَ الذي نَجَوتُم مِنْه
لَقَد مَضَيْنا نُغَيِّرُ بَلَداً بِبَلَد أَكْثَرَ مِمَّا نُغَيِّرُ حِذاءً بِحِذاءْ
نَخوضُ حَرْبَ الطَّبَقاتِ وَحْدنا وَحْدَنا
وَيَتملَّكُنا اليَأْسُ حينَ نَجِدُ الظُّلْمَ وَلا نَجِدُ مَنْ يَثورُ عَلَيْه!»

برتولد بريخت

1 . الشـاعر

هَلْ أَتاكُم خَبَرُ «الغِيسَّا» ؟

إِنَّـهُ مِنَ الطُّقـوسِ القُدُسِيَّـةِ للإِنْكـا، الهُنـودِ النُّحـاسِيينَ في أَمريكا اللاَّتينِيَّة. كَهَنَةُ الشَّمْسِ (التشيكْس) هُمُ القوَّامونَ عَلىٰ هٰذا الطَّقْسِ وَالمُهندِسونَ لِمَراسيمِـهِ بِآسمِ إِلٰـهِ الشَّمْسِ (بُوتْشيتشَـا). يَبْـدَأُ الطَّقْسُ بسَـرقَـةِ الأَطْفـالِ مِن والـديهم. للطِّفْـلِ المَسـروقِ

---

* أُستاذٌ جامعي، وَرئيسُ لجنةِ التَّخطيطِ الشَّاملِ للثَّقافةِ العَربيَّة.

مُواصَفاتٌ مُعَيَّنَةٌ يَعرِفُونَها، وَيُربى الطِّفْلُ فِي مَعْبدِ الإِلٰـهِ حَتىٰ يَبْلُغَ العـاشِـرة. ثُمَّ يُـطافُ بِـهِ في سِلْسِلَةٍ مِنَ الحِجَّـاتِ إِلىٰ المَـواقِـع المُقَـدَّسَـةِ لِيَقـومَ بـالـطُّقـوسِ الـدِّينِيَّـةِ المَفْـروضَـة. حَتَّىٰ إِذا بَلَغَ الخامِسَةَ عَشْرَةَ حانَ مَوعِدُهُ مَـع الأُضْحِيَّةِ لِـلإِلٰه. يُـرْبَطُ إِلىٰ عَمودٍ وَسْطَ مَيْـدانٍ دائرِيٍّ بِـالمَعْبَدِ وَيَتحلَّقُ حَـوْلَـهُ الكَهَنَـةُ دائِـرَةً تُهَمْهِمُ جَـوْقَةً وَاحِـدةً بِالنَّشيـدِ الإِلٰهِي، ثُمَّ تَرْميـهِ بِالسِّهـامِ، وَيَسيـلُ دَمُـهُ شَرايينَ دَافِئَةً إِلىٰ إِناءٍ مُقَدَّس. أَمّا صُراخُهُ فَصَلواتٌ لِلسَّماءِ، وَأَمَّـا القَلْبُ فَيَنْـزِعـونَـهُ مِنَ الصَّـدْرِ زَهْـرَةً مُتَفَتِّحَـة، لِيَتَّجِـهَ بـه الكـاهِنُ الأَعْظَمُ كَالأُرْجُوانِ المُتَوَهِّـجِ تَقْدِمَـةً لِلشَّمْس، ويَزْعُمـونَ أَنَّ هٰذا القَلْبَ سَيَكْبَرُ وَيَكْبَرُ لِيُصْبحَ بِحَجْمِ الدُّنْيا..!!

«الغِيسَّا» هُو هٰذا الفَتىٰ الأُضْحِيَّة!

وَتَستَـطيعُ بِلَمْحَـةِ خَيالٍ أَنْ تَنْتَقِـلَ مِنَ الغيسَّـا إِلىٰ الشَّـاعِـرِ الـزَّواتي، وَمِنَ الشَّاعِـرِ إِلىٰ الغيسَّا، فَـالخُبْزُ وَالمِلْحُ هُمـا نَفْسُهُما بَيْنَ الاثْنَين، وَالطُّفولَةُ وَالأَماكِنُ المُقَدَّسَة، وَالمَصيرُ الإِلٰهِيُّ وَشَميمُ الشَّمْس!

إِنَّـهُ مِنْ شُعَراءِ النَّكْبَـة، وَشُعَراءُ النَّكْبَـةِ مَحْكُومـونَ بِـالقَـدَرِ الأُودِيبِي، بِـالبَقاءِ بَيْنَ الجُـرْحِ وَالمَوْت، وَبِحَمْـلِ النَّكْبَـةِ صَليبـاً أَبَديّاً. الفَـرْقُ الوَحِيـدُ أَنَّ الغِيسَّا يَتَلَقىٰ قَـدَرَهُ بِٱسْتِسـلام، وَشُعَراءُ

النَّكْبَةِ يَقْتَحِمُونَ هٰذا القَدَرَ.. يَتَحَدَّوْنَه.. يُطِلُّونَ مِنْهُ عَلىٰ العَدَمِ وَالماوَراء، عَلىٰ اللّامَحْدُودِ بِعَيْنٍ هي عَيْنُ النَّسْرِ أَوْ أَبْعَدُ أَمَدا...

وَيُحَدِّقونَ حَتىٰ لَيَرْتَعِشَ المَوْت...
وَتَخْضَلَّ جُذُورُ الزَّيْتونِ وَتَنْهَلَّ الكُروم...

وَأَنا أَنْصَحُ القارِىءَ مُنْذُ البَدْءِ أَنْ يَتجاوَزَ المُقَدِّمَةَ وَيَذْهَبَ في الدِّيوانِ سَرَباً لِيَبْحَثَ عَنِ الشّاعِرِ، وَصَلَواتِهِ وَجِيادِهِ التي تَرْفُضُ السَّرْج، وَقَصائِدِهِ المَمْنُوعَةِ مِنَ التَّجْوال، أَنْ يَتأَمَّلَ حُرُوفَهُ المَنْثورَةَ كالخُبْزِ النّاضِجِ أَمامَ الجِياع، أَنْ يَسْأَلَ عَن زُمُرُّدِ السَّنابِلِ وَطحينِها المُقَدَّس، عَنِ الغابَةِ تَراكَمَتْ عَلىٰ أَرْضِها جُثَثُ الأَوْراقِ المُتَعَفِّنَةِ وَالأَغْصانِ المُتَحَجِّرَة، وَتَفَتَّحَ فيها مَع ذلِكَ الزَّهْرُ الوَحْشِيُّ المُحَيِّر.

أَنا أَنْصَحُ القارِىءَ أَنْ يَبْحَثَ بِنَفْسِهِ عَن قَلْبِ الشّاعِرِ قَبْلَ أَن تَلْتَهِمَهُ السِّهام، فَهذِهِ المُضْغَةُ هِيَ الشّاعِرُ كُلُّه. بٰاطِلُ الأَباطيلِ مَا يُلْبِسونَهُ مِنَ الثِّياب، مَا يُضْفونَ عَلَيْهِ مِنَ الأَصْباغ، مَا يُلْحِقُونَهُ بِهِ مِنَ الحَسَد. كُلُّ ذلِكَ لَيْسَ أَكْثَرَ مِن أَغْلِفَةٍ كَوَرَقِ الهَدايا، وَلَن تَعْثُرَ عَلىٰ الهَدِيَّةِ إِلّا بَعْدَ أَنْ تُمَزِّقَ الأَغْلِفَة، كُلَّ الأَغْلِفَةِ حَتى الجَسَد، وَبَعْدَ أَنْ تَمُرَّ بِالسُّفُنِ المُبْحِرَةِ عَلىٰ كُلِّ المَوانِىء.

إذا عَادَ القارِئُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهِمَني وَفَهِمْتُه، فَالشِّعْرُ لَا يُكْتَبُ عَنْهُ بِحُروفِ المَنْطِقِ وَلكِن بِالنَّثْرِ المَجْنون، بِشِعْرٍ مِن مِثْلِهِ مَسْفوحٍ مَعَ الكُروم، بِجَناحٍ طَليقٍ مَعَ الإفاقَةِ في الرُّؤىٰ، وَمَعَ خَفْقَةِ النُّجومِ حَتى سِدْرَةِ المُنْتَهىٰ، وَمَعَ مِجْدافِ البِحارِ السَّبْعَةِ وَالسَّمواتِ السَّبْع.

صَحيحٌ أَنَّ كُلَّ شُعَراءِ فِلسطينَ جَوْقَةٌ وَاحِدَة، يُرَدِّدونَ النَّغَمَ المُتَمَرِّدَ نَفْسَه، يَعْزِفونَ عَلى الجِراحِ ذَاتِها، صَحيحٌ أَنَّ شِعْرَهُم ثَوْرة... خُبْزَهُم ثَوْرَة... أَنْفاسَهُم ثَوْرَة، وَلكِنْ لِكُلِ شاعِرٍ مِنْهُم ثَوْرَتُهُ الخاصَّة، وَكُلٌ مِنْهُم يُحَقِّقُ ثَوْرَتَه عَلى طَريقَتِه. وَالزَّواتي حَالةٌ شِعْرِيَّة، شِعْرٌ كُلُّه، تُحِسُّ وَأَنْتَ تُكَلِّمُهُ أَنَّهُ قَصيدَةٌ تَجَسَّدَتْ في إِنْسان، قَصيدَةٌ مُرْسَلَةٌ ذَاتُ مُوسيقىٰ خَاصَّةٍ وايقاع، وإِنْ تَكُنْ دُونَ قَوافٍ يُمْسِكُ بَعْضُها بِرقابِ بَعْض. وَالزَّواتي عاشِقٌ صُوفي، الشِّعْرُ فِي نِهاياتِهِ مَلْحَمَةُ عِشْقٍ إِلهي - تُراثِي، صُوفِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ عَلىٰ الأَرْضِ تَلتَقي عِنْدَها اللانهايات، وَتَصْمُتُ جِنِّيات الأَبَدِ وَيَنْكَسِرُ القَمَر، فَلا يَفْتَرِقُ فِيها النُّورُ عَنِ الظِّلِ وَلا السَّماءُ عَنْ حَريقِ الأَرْض.

وَلا يَسْتَطيعُ الشَّاعِرُ آمْتِلاكَ الفَرَح، إِنَّهُ تَرَفٌ حَرام، الفَرَحُ في صَدْرِهِ جُنونٌ أَخْرَسُ مُنْذُ صِغَرِه، لٰكِنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَتَراءىٰ

حَتّىٰ عَلىٰ الشِّفاه. قَلْبُهُ زَهْرَةٌ مِنْ لَهَب، رَبيعٌ لا يَجْرُؤُ أَنْ يَبُوح، عُصْفورٌ يَعْبُرُ كَالسَّهْمِ عِنْدَ الفَجْرِ وَهُو يُزَقْزِقُ لِيَعودَ فَيَخْتَبِىءَ فِي الدَّغَل. . . وَإِذا كَانَ لَهُ أَنْ يَعْشَقَ فَالعِشْقُ الغارِقُ فِي اللَّعْنَةِ وَفِي الحِرْمانِ، وَفي الجِراحِ بِعَرْضِ الشَّمْس، وَبِطولِ لَعْنَةِ قَابِيل. إِنَّ النَّارَ السَّوْداءَ في صَدْرِهِ تَلْتَهِمُ كُلَّ شَيءٍ إِلَّا حُبَّ التُّرابِ المَغْصوب. وَطَنُهُ قُدَّ مِنْ صَخْرَةٍ صَوَّانِيَّةٍ وَسَوْسَنَةٍ وَقَبْضَةِ زَعْتَر. . . وَجُرْحٍ غائِرٍ فِي القَلْبِ، وَكَوْكَبَةِ فُرْسَانٍ تَسيلُ عَلىٰ الأُفُق، وَمَن ذَا الَّذي يَسْتَطيعُ آفْتِراسَ الصَّخْرَةِ وَالسَّوْسَنَةِ مَعاً، وَالزَّعْتَرِ وَالجُرْحِ والفُرْسان ؟

* تَوسَّدْتُ صَدْرَكِ
أَلغيتُ كُلَّ مَواعيدِ قَتلي
وَأَبحرتُ في مَرْكَبٍ لا يُضاءْ
وَفوجئْتُ بِالليلِ يَأتي سَريعاً
وَبالمُخْبِرينَ الغِلاظِ الوُجوهِ
يَشُقّونَ دَربي
يَشدُّونَ زَنْدي بِدونِ حَياء

* تَوسَّدْتُ صَدْرَكِ
جَدَّدتُ عاماً لأَحيا

وَسافرتُ... أبحرتُ عَبر التُّخومِ البَعيدهْ
وَكُنْتِ جَوازي وَكُنْتِ الحَقيبَهْ
وَكُنتِ الدِّماءَ التي في عُروقي
وَكُنتِ الحَبيبَهْ

* أُحِبُّكَ يا أَيُّها البَحرُ... إني أُحِبُّكْ
وَجالَتْ بِصَدري المُدىٰ وَالخَناجِرْ
وَصَوْتُ حَنُونٌ مُكابِرْ
أُحِبُّكَ إني أُحِبُّكْ
حَمَلْتُ جِراحي عَلىٰ كاهِلي
وَأَبحرتُ سِرّاً لِكَيْ لا يَراني الجُنودْ
وَألقيتُ كُلَّ القَنابِلْ
فَشَدّوا وَثاقي وَقَصُّوا الجَدائِلْ

وَتُجَرْجِرُ الكَلِمَةُ الشّاعِرَ مِنْ سِفْرِ التَّكوينِ إلىٰ سِفْرِ الغِناء. وَمَا الحَيٰاة ؟ إنَّها أُرْجوحَةٌ بَيْنَ التُّفاحَةِ وَالدَّمْعَة، وَلٰكِنَّ التُّرابَ أَبَداً يَتَحدىٰ. إنّهُ زَهْرَةُ نِيلُوفَر !

وَقَدْ تَمْشي المَقابِرُ في دِمائِه... تَحُفُّهُ بِصُعُوبَة... تُحاصِرُ عَيْنَيْه، المَقابِرُ بِكُلِّ مَكانٍ وَالجُثَثُ المُتَعَفِّنَة، وَيَصْرُخُ لِلخَلاصِ وَلا خَلاص، لأَنَّ القَبيلَةَ كُلَّها نائِمَة، مُخَدَّرةٌ وَحَولَها آنْتَشَرَتْ جِبالٌ

مِنَ الأَفْيونِ وَالحَشِيشِ وَالسِّياط... وَلكِنَّهُ يَظَلُّ مُلْتَصِقاً بِالمَوْقِد... يَضَعُ فِيهِ قَلْبَهُ لِيُتابِعَ اللَّهَب، وَيُتابِعَ الرَّقْصَ المُقَدَّسَ وَالرَّحيلَ الأَبَدي:

* وَسَوْفَ نَظَلُّ نَرتَحِلُ
وَسَوْفَ نَظَلُّ نُسْرِجُ هٰذِهِ الأَعوامَ
نَركَبُها
وَسَوْفَ تَظَلُّ تَعدو نَحْوَ مَعقِلِنا عَلى الشَّمْسِ

* لِأَجْلِكُمُ
لِأَجْلِ الشَّمْسِ حِينَ تَعودُ
حِينَ يَصيرُ هٰذا اللَّيْلُ مِنْدِيلاً
أُمَزِّقُهُ وَأَرْتَحِلُ
لِأَجْلِ الفَجْرِ حِينَ يَبوحُ بالآلامِ
حِينَ يَصيرُ وَادِينا
وَأَشْجاري آلتي آقْتُلِعَتْ
مَغاويرا
أَشُدُّ الرَّحْلَ مِنْ مَنْفىً إِلىٰ مَنْفىٰ
أُجَرِّدُ عَبْرَ هٰذا اللَّيْلِ أَقْدامي
وَأَرْتَحِلُ...

كَعَمُودٍ مِنَ الرُّخامِ الأَبْيَضِ المُنْتَصِبِ إِلىٰ السَّماءِ تَصاعَدَ نَشيدُه، وَكَعمودٍ مِنَ المَاءِ، الّذي تَدورُ بِهِ العاصِفَةُ فِي البَحْرِ وَتَدورُ ثُمَّ تَهوي، كَان يَهوي صَاحِبُ النَّشيد، وَتَدورُ أَمامَهُ الصُّوَرُ كَتنُّورَةٍ غَجَرِيَّةٍ مُطَرَّزَةٍ بِأَلْفِ وَرْدَة، كَشَلاّلٍ مِنَ النجومِ وَالأَقْمارِ الَوَرْدِيَّةِ والخَضْراء، كَمَهْرجانٍ مِنَ المَصابيحِ المَجْنونَة، ولَكِنَّهُ في هٰذا الانهيارِ يَجِدُ ضَالَّتَهُ الكُبْرىٰ، يَجِدُ نَفْسَه !!

الزَّواتي شَاعِرٌ مُقاتِل... طِفلٌ مُقاتِل... «عَلىٰ صَهْوَةِ الجُرْحِ جِئْتُكِ طِفْلاً مُقاتِل»... لا لأَنَّ القِتالَ في دَمِه، فَما أَبْعَدَ ما بَيْنَ الشِّعْرِ وَالحِقْدِ الّذي يَنْتَضي السِّكين، وَلٰكِنْ لِأَنَّ القِتالَ مَفْروضٌ عَلَيه. حينَ يَرْكُضُ المَوتُ فِي الدُّروبِ جَهْماً مَعْصوبَ العَيْنَينِ وَالسِّكينُ في فَمِهِ وَرائِحَتُهُ تَضِجُّ عَبْرَ العَجَاجِ وَالدُّخان، لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَنْتَبِذَ مِنْهُ مَكاناً قَصِيًّا. لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَرْفُضَ السِّكين... فَالمَوْتُ هُوَ البَديل، وَالقَتَلَةُ مُحْتَرِفونَ مُحْتَرِفُون، إِلىٰ الزَّاوِيَةِ الأَخيرَةِ أَلْجَأوه، إِلىٰ لَحْظَةِ أَن آقْتُلْ أَوْ تُقْتَل !

وَلأَنَّهُ مُقاتِلٌ فَهُو مَسْكونٌ حَتَّىٰ العَظْمِ بِأَرْضِه. يُحِبُّ تُرابَه، يُحِبُّ زَواتا وَدُورا، يُحِبُ أُمَّه: «وَكُلُّ آبْتِداءٍ إِليهِ آنْتِهاءْ/ سِوىٰ حُبِّنا لَنْ يَمُوتَ/ فَنَحْنُ آبْتِداءُ/ بِدونِ آنْتِهاء». مِنْ تُرابِ الأَرْضِ بَدَأ، وَمَعَ التُّرابِ ظَل، وَمِنَ التُرابِ نَفْسِه قُوَّتُهُ... ثَوْرَتُهُ...

بَراكِينُهُ وَزَبَدُه.

إنَّ نَابُلْسَ جَبَلُ النَّار، إنَّها بُرْكَان، وَهُو شُعْلَةٌ مِنْه، مَنْ قَالَ أَنَّ نابُلْسَ مُجَرَّدُ جَبَل ؟

* يُحاصِرُني العِشْقُ يا أَرْضَ دُورا
فَأَحْشو جِراحِي بِنارِ الغَضَبْ
أُفَجِّرُ صَدْرِيَ بُرَكانَ ثأرٍ
أُرَوّي بِدَمْعيَ عُشْبَ النَّقَبْ

* يُهَدْهِدُني الوَلَهُ الزَّعْتَريُّ
فَأَمْسَحُ جُرحي بِجِمّيزِ غَزَّهْ

* أُعلِّقُ قَلْبي عَلىٰ بَابِ بَيْروتَ
أَذْكُرُ أَنِّي نَهَضْتُ
وَأَشْهَدُ أَنِّي بَكَيْتُ
وَأَنِّي ٱبْتَدأْتُ وَأَنِّي ٱنْتَهَيْتُ
وَأَذْكُرُ يا أَيُّها العِشْقُ
يَاذا الَّذي قَدْ تَجَذَّرَ فِي كُلِّ جِسْمي
لِماذا تُحَمِّلُني كُلَّ هٰذا التَّعَبْ ؟

* زَواتا يُحاصِرُني ظِلُّكِ السَّرْمَدِيُّ

يُحاصِرُني السَّرْوُ وَالسَيْسَبانُ
فَأَغْسِلُ رُوحي بِحَبَّاتِ قَلْبِكْ
أَجُوبُ جِرَاحَكِ
أَلْثُمُ دَمْعَكِ
أَرْسُمُ بالدَّمِ عَهْداً وَقُبْلَهْ
وَأَنْقُشُ رَسْمَكِ فَوْقَ ضُلوعي
فَيَنْبُتُ عُشْباً وَزَهْرَهْ

وَكَـرْمٍ مِنَ الفِضَّـةِ مُضيءٍ... مُشِعٍ... يَنْغَـرِسُ الزَّواتيُّ في زَواتا لا يُغادِرُها، وَتَتَوَحَّدُ فِلسطينُ في زَواتا كَما يَتوحَّدُ العالَمُ كُلُّهُ فِي فِلسْطِين...

«تَوحَّدَ فِيَّ الزَّمانُ/ وَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَها»

* «زَواتا» تُحاصِرُني الشَّمْسُ عِنْدَ المغَيبِ
فَأَغْفو عَلىٰ صَدْرِكِ الزَّعْتَرِيِّ
كَطِفْلٍ يَتيمٍ تَهاوىٰ
«زَوَاتا» يُحاصِرني البُعْدُ وَاللّيلُ وَالبُرتُقالُ
فَأبكي وَأَمْسَحُ وَجْهي بِكُلِّ السَّنابِلِ
أَجْمَعُ قَلبي عَلىٰ رَاحَتيكِ
فَيَجْلِدُ رُوحي بَرْدُ المسَافَاتِ

أَعْرِفُ أَنَّ الضَّياعَ لَدينا تَنامىٰ
أَنامُ عَلىٰ وَجْنَتَيكِ
وَأَحْلُمُ أَنَّ الزَّمانَ تَحوَّلَ خُبْزاً وَزَيْتاً وَنَارا

يَعْمُقُ شِعْرُهُ لَحْظَةً بَعْدَ أُخْرىٰ، وَيَعْمُقُ في نُقْطَةٍ وَاحِدةٍ هِيَ اللَّون، وَهِيَ القالَب... هِيَ الَخَلْقُ وَالخالِق... هِيَ التَّأريخُ وَهِيَ المُسْتَقْبَل... نُقْطَةٌ واحِدَة، أَمِنَ الصَّعْبِ أَنْ تَكْتَشِفَ مٰا هِي ؟

وَحِينَ تَصْعَدُ فِلسطينُ وَتَصْعَدُ حَتى الصُوفَةِ وَالرَّمْز، وَحَتَّى التَّقْديسِ وَالسَّمواتِ العُلىٰ تَهْبِطُ «النُّظُمُ» العَرَبِيَّة، وَيَهْبِطُ «زُنَاةُ اللُّغات»، وَيَهْبِطُ «دُعاةُ العَطاء»... وَيَسْتَعْجِمُ الفَهْمُ عَلىٰ الشَّاعِرِ فَيسأَل: «يٰا وَجْهَ الحَقِّ أَنا مَذْهولٌ... فَاللَّيلُ يُلاحِقُني في غُرْفَةِ جَلادّي».

* تَهوي الغُصونُ
وَكُلُّ شُيوخِ القَبيلَةِ حَولي
يَبيعونَ دَمي بِسِعْرِ المَزادْ
فَأَهْرُبُ مِن مَوْكِبٍ فيهِ بآسمِ البِلادِ
تُباعُ البِلادْ
وَمن دَعْوَةٍ للجِهادِ

وَلا شَيءَ فيها يقودُ الجِهادْ

* لِماذا تَنامُ السُّيوفُ بِأَغْمادِها ؟
فَرَشْتُ تُرابَكِ بالنَّارِ
غَسَّلْتُ جِسْمَكِ بالعُنْفُوانِ
وَمَزَّقْتُ كُلَّ الخَرائِطِ
كَسَّرْتُ كُلَّ السُّيوفِ القَديمَهْ
عَشِقْتُكِ حَتَّى التَّوحُّدِ
قَبَّلْتُ جُرْحَكِ
غَنَّيْتُ آمالَ شَعبي

وَتَتَعَطَّلُ لُغَةُ الشِّعْرِ في هٰذهِ اللَّحظاتِ عَلىٰ شَفَتيِّ الشَّاعِرِ فَلا يَجِدُ عَلَيها إلَّا الشَّتيمَةَ... إلَّا اللَّعْنَةَ العَلَنِيَّةَ... إلَّا الكَلِمَةَ النَّثْرِيَّةَ التَافِهَةَ فَيَبصُقُها كَما هِيَ... عَارِيَةً عَارِيَة...

* أفيقوا أيُّها اللَّاهونَ
في حَاناتِ وَاشِنْطُنْ
أفيقوا إنَّ أَطْفالَ الجَنوبِ
اليومَ في العَرْقوبِ
في (آضبَيَّه)
فِي تَلِّ الفِدا المَهْدومِ

تَلِ الزَّعترِ المَنْكوبِ
في صَبرا
وَفي الوحداتِ
في غَزَّهْ
وَفي اليَرموكِ قَد هَتفوا
أَفيقوا يا ذِئابَ العَصْرِ
يا أَوْغادْ
بِآسْمِ الأَرْضِ نَلْعَنُكُم
وَبِآسْمِ الشَّعْبِ نَحْرِقُكُمْ وَنَذْروكُمْ
وَنصْنَعُ من بَقاياكُمْ قَنابِلَ لِلغَدِ الآتي
نُفَجِّرُها بِوَجهِ الغَدْرْ
وَجهِ ذِئابِ هذا العَصْرْ

* لَقَد قَتَلوكَ يا وَطَني
وَكانَ الحِقْدُ رائدَهُمْ
وَكانَ الذُّلُ سَيِّدَهُم
وَكَانَ وَكَانْ
وَجاءَ الحُزْنُ بالأَطْنانْ
ليروي قِصَّةَ العارِ
وَيروي قِصَّةَ الشَّعْبِ

الذي آغْتالوا
وَيَرْوي قِصَّةَ الشَّجَرِ
الذِي آقتَلَعوا
وأَحلامَ الصّغارِ وَكُلَّ ما فَعلوا

عَلىٰ أَنَّ كَلِمَةَ اليَأْسِ لا تُخالِطُ، تَحْتَ كُلِّ الـظُّرُوفِ، رُوحَ الشَّاعِرِ. لَيْسَ ثَمَّةَ ثَقْبٌ في رَأْسِهِ وَلا أَنْفاقٌ مِنَ السَّواد. إِنَّهُ يُجابِهُ التِّنينَ الأَزْرَقَ ذا الـرُّؤوسِ السَّبْعَةِ بِـالكَلِمَة، وَيَعْلَمُ أَنَّـهُ مُنْتَصِـر، بُكلِّ بَساطَةٍ مُنْتَصِر.

وَبِرَغْم أَنَّهُ مَسْكونٌ بالتَّمَزُّق... بِالسُّعالِ القَاتِل... بِقارَّاتٍ مِنَ الإِحْبـاط، وَبِرَغْمِ البَـراكينِ الَّتي تَنامُ مَعَـه، وَغابـاتِ الأَفَـاعِي السَّوْداء، وَبِرُغْمِ الفَراغِ الذي يَقْطَع... وَبِرُغْمِ كُـلِّ شَيءٍ، فَإِنَّ الـرُّؤْيا تُنْقِـذُهُ لِيُصْبحَ وَحْـدَهُ الكُـل. وَلِيُصْبِـحَ الشِّعْـرُ نَبْضَـهُ الحَيَّ وَشفافِيَتَهُ اللاّنِهائِيَّه، وَتعويذَةَ الجَحيم! إِنَّ البُرْكَـانَ وَطَنُهُ لَا اليَـأْسَ وَلا البُكاءَ حَتىٰ وَلا الأَمَل... إِنَّهُ اليَقينُ حَتى يَخْرُجَ والمَوتىٰ مِنَ الزَّمَنِ المَكْسُور، وَمِنْ نَهْرِ الكَوْثَرِ ظَافِرين!

وَتَلْتَهِمُ النَّارُ التِّنينَ حَتى آخِرِ رَأْسٍ ثَلْجِيٍّ فِيه!
وَلا يَخْدَعَنَّكَ الإِيقاعُ المَأْساويُّ لَدَىٰ الزَّواتي، إِنَّهُ رَدُّ فِعْـلٍ عَلىٰ التَّحَطُّمِ الدَّاخِلي، هُوَ رَفْضٌ للانْسِحاقِ أَمامَ القُوىٰ الغاشِمَة،

نَعَم إنَّهُ عيْنٌ لا تَرىٰ إلا الفَجيعَة. أُذُنٌ لا تَسْمَعُ إلَّا أنينَ الأَرْضِ العَميق، ولٰكِنَّ رُوحَه، بِرُغمِ ذٰلِك، مُتفائِلة. إنَّ لَهُ عَيْناً بُرونْزيَّةً لا تَبْكي، وَلٰكِنَّها تَبْصُقُ الدَّمْعَ أَنْهاراً مِنَ الرَّماد. تَثُور... تَغْضَب... تُنْشِبُ الأَظافِر، إنَّهُ يَعيشُ «عُرْسَ الدَّم» في حين يَحْلُمُ بِما سَمَّاهُ لُورْكا «مَمْلَكَةَ السُّنْبُلَةِ» وَالكُروم!

* أَيُهٰذا الجُرْحُ
يٰاهٰذا الَّذي قَدْ نَمٰا فِيَّ
وَفي صَدْرِيَ غَائِرْ
مَلَّني التَّرْحالُ وَالمَنْفىٰ
وَمَا عادَ في الكونِ ضَمائِرْ
مَزَّقوا القُرآنَ والانجيلَ والتوراةَ
قالوا: إنَّما نَحْنُ العَساكِرْ
أَحْرَقوا كُلَّ المَشاعِرْ
صَلَبوا النَّوْرَةَ في الشَّمْسِ
وَشَقّوا صَدْرَها
حٰاصَروا البَسْمَةَ وَٱصْطادوا البَشائِرْ

لِكَثْرَةِ مَا صَرَخ، فَمُهُ صَخْرَةٌ تَصَلَّبَت... جَمَدَت.. صَارَتْ صَخْرَة... فُولاذاً يَزْأَر، يُحاصِرُها الحُزْنُ وَالصُّراخُ وَتُرابُ

الأَرْض، وَإِذا كَـانَ يَغـوصُ في الأَرْضِ مَـعَ كُـلِّ شَهيـد... يَغُوص... يَغُوص... يَتَجذَّر، فَإِنَّهُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ يُنْبِتُ عَناقيـدَ وَأَشْرِعةً وَوَرَقاً أَخْضَر.

وَشِعْرُ الزَّواتيِّ كُلُّهُ كَوْنٌ وَاحِد، مَـوْضوعٌ مُقَـدَّسٌ لا يَحُور، فِلسطينُ هِي الشِّعْرُ وَهِيَ القَصيـدَه، هِيَ المَطَرُ وَالجُـرْحُ وَالحياة، هِي دُنْياهُ وَالآخِرَة:

* وَفي لَحْظَةِ الانصِهارِ
تَوحَّدْتُ فيكِ
فَجاءَ الجُنودُ وَصاحوا
* وَأَبْحَرتُ مِنْكِ إِليكِ
كَأني بِكِ الآنَ في لَحْظَةِ الالتحامِ
كَأَنَّ دِمائي التي قَد رُويتِ
رَبيعٌ مَضىٰ
* أَنا الأَرْضُ
يا أَرْضَ يافا العَروسَ
عَلىٰ الصَّدْرِ تَنْمو بَساتينُ حُبي
عَلىٰ الجُرْحِ زَيْتٌ وَلَوْزٌ وَتينْ
كَفاني أَموتُ عَليكِ حَنيناً

وَتَحْتَ تُرابِكِ أَقْضي السِّنينْ
وَأُبْعَثُ في الفَجْرِ زَهْراً نَدِياً
أَفوحُ عَبيراً
وَسِرّاً دَفينْ

لهذا كانَتْ فِلسطينُ العَمودَ الفَقْرِيَّ لأَعْمالِهِ الشِّعْرِيَّـة. كانَتِ المَبْدَأَ وَكانَتِ المُنْتَهى، عَلىٰ أَنَّه لَيْسَ بالعَسيرِ أَن تَجِدَ ضِمْنَ هٰـذا الفَلَكِ الـدَّوارِ أَرْبَعَةَ مَعـانٍ أَوْ مَحـاوِرَ أَسْمَـحُ لِنفسي أَنْ أُسمِّيهـا: الوجودَ الفِلِسْطيني، وَالقَهْر، وَمَعنىٰ الشِّتاء، وَكوفادِيسْ.

2 . معنى الوجود الفلسطيني

* إفريقيَا ! إنَّني أُفَكِّرُ دَوْما فيكِ إفريقيَا
إنَّكِ بِداخِلي . . كَشَظِيَّةٍ في الجُرْحْ
كَجَناحَي العِنايَةِ الإلٰهِيَّهْ

رومين (هاييتي)

فِلسـطينُ مَوْجُـودَةٌ فِي كُلِّ صَفْحَـة، في كُـلِّ بَيْت، فِي كُـلِّ كَلِمَة، فِي كُلِّ حَـرْفٍ عِنْدَ الـزَّواتي، حَتىٰ بَيْنَ الأَسْطُرِ تَجِـدُ آسْمَ فِلسطينَ يَلْتَمِع. إنَّهُ لا يَلْجَأُ كَغَيرِهِ للأَحْلام، للأَساطِير وَالـرَّمْز، لا يَلْجَـأُ إِلىٰ الحَنينِ وَالرِّثـاء، وَلٰكِنَّهُ يَتَغَنّىٰ بِكُـلِّ حَـرْفٍ مِنْ حُـروفِ

هٰذا الاسْم، يُحَوِّلُ كُلَّ حَرْفٍ قيثارَةً وَنَشِيدا... صَحيحٌ أَنَّهُ أُبْعِدَ عَنْهَا مُنْذُ سِنين، وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ فِيها لأَنَّهُ حَمَلها مَعَه. أَرْضُهُ كُلُّها هٰاجَرَت مَعَه بَيْنَ جَنْبَيه، فَهِيَ تَمْلأُ عَلَيْهِ إِطارَ الرُّؤْيَةِ حَتىٰ لا يَكادَ يَرى غَيْرَها. إِنَّهُ يَحيا فيها سَبَعمائَةٍ وَثَلاثينَ يَوْماً كُلَّ سَنَة! قَدْ يُهاجِرُ الآخَرونَ فِي كُلِّ الآفاق، قَد يَنْسونَ بَعْضَ مَلامِحِها... قَد تَغيبُ عَنْهُم لَحْظات. أَما هُوَ فَمُلْتَصِقٌ بِصَدْرِ فِلسطين لَم يُفْطَم، مُتَمَسِّكٌ بِجَدائِلِها، يُغني لِغَدٍ آتٍ وَيُؤمِنُ أَنَّهُ آتٍ لا مَحالة.

* تَوَسَّدْتُ صَدْرَكِ
أَسْرَجْتُ قَلبي
أَسْنَدْتُ وَجهي إِلىٰ الشَّمْسِ
أَغْمَضْتُ جَفْنَيَّ حُباً وَحُلْما
وَكانَت ذَوائِبُ شَعْرِكِ تَغْزو جَبيني
فَيَهرُبُ حُلْمي وَأَبْقىٰ
وَقَلْبي الجَريحُ تَدلىٰ
وَغاصَ بَعيداً بَعيدا
فَقلبي يُحِبُّ البِحارَا
وَيَعْشَقُ في الليلِ وَجْهَ النَّهارِ
وَيَزْرَعُ صَدْرَكِ وَرْداً وَغارا

فِلِسْطينُ هِي الوُجودُ لَدىٰ الشَّاعِر، إِنَّهُ مَوْجودٌ فيها وَهيَ مَوجُودَةٌ فِيه. مَوْجودَةٌ في كُلِّ مَكانٍ وَفي اللَّامَكان، وَتُحِسُّ كَأَنَّ الشَّاعِرَ وُجِدَ في أَرْضِ فِلسطينَ وَسمَائِها قَبْلَ أَنْ تُوجَد، وَأَنَّهُ سَيَظَلُّ هُناكَ، بَعْدَ أَن يَقْبِضَ اللّهُ الأَرْضَ وَما عَليها، صَخْرَةً في ظِلِّ الصَّخْرَةِ المُقَدَّسَة، وَسَوْسَنَةً كَالزَّبَرْجَدِ العَتيق، وَسُنْبُلَةً تَنْثُرُ الحَبَ، وَقَلباً يَنْبِض.

حَتى جُغرافيَّتُهُ الكَونِيَةُ مَحصورَةٌ في مَدىً ما بَيْنَ جَبَلِ الشّيخِ وَشَرْمِ الشّيخ، فَهي تَبدأُ من شَمالِ عَكا عِنْدَ بَيروتَ وَتَنتَهي بَعْدَ العَريش.

وَفلسطينُ عِندَ الشَّاعِر هي الأُم:

* هُنا مِنْ سَاحَةِ الإِعْصارِ
وَالطُّوفانِ وَاللَّهَبِ
وَمِنْ تَرَسانةِ المَنْفىٰ
وَمِن زِنزانَةِ التَّشْريدِ وَالأَحْزانِ وَالأَلَمِ
أَمُدُّ يَدي
أُلامِسُ وَجْهَكِ القَمْحيِّ يا أُمّاهُ
أَحْضُنُ حُبَّكِ المَمْزوجَ بالآهاتِ وَالغَضَبِ
لأَسْرُدَ قِصَّةَ المَنْفىٰ

* فَنَحْنُ هُناكَ يا أُماهُ
نَحْنُ العائِدونَ إِلَيْكِ
نَحْنُ القادِمونَ إِليكِ في تَرْحالِنا الغادي
عَلىٰ لَهَبِ البَراكينِ
عَلىٰ نيرانِ ماضينا وَحاضِرنا وَآتينا
عَلىٰ وَقْعِ البَنادِقِ يَوْمَ عَوْدَتِنا الرَّبيعيّهْ

فِلسطينُ هِيَ كُلُّ الرُّموزِ لَدىٰ الشَّاعِر، هِيَ الحُبُ... هِي الأَرْضُ... هِيَ الماضِي... هِيَ الآتي... هِيَ التّينُ والزَّيْتون.. هِيَ الزَّعْتَرُ وَجدائِلُ العَروس، الأَسْماءُ الحُسنىٰ كُلُّها تَطوفُ حَوْلَ هٰذهِ الكَعْبَةِ... فِلسطين ! حَتى أَسماءُ بُلدانِها تَحورُ لَديهِ أَنْغاماً شِعْرِيَّة، مُطْرِبٌ تَرْدادُها، فَهي تَسبيحٌ عَلىٰ فَمِه، وَشلالُ أَغانٍ وَإِيحاء:

* هٰذا شَعْبُكِ يا بَلَدي
هٰاهُم أَهْلُكِ
في نَابُلْسَ وَفي جنِينَ
وَفي البِيرَهْ
فِي القُدْسِ وَفي رَامَ الله
فِي تَلِّ الزَّعْتَرِ

في حَيْفا في يٰافا
فِي اللّدِ وَفي الرَّمْلَهْ
فِي كُلِّ بقِاعِكَ يٰا وَطَني
تَمْتَدُّ النَّارُ
وَتَلْتَهِبُ الشُّعْلَهْ !

* وَهٰذي العَصافيرُ فَوْقَ الجَليلْ
وَأَشْجارُ يٰافا وَكُلُّ كُرومِ الخَليلْ
تَعُدُّ الحُروفَ ٱلتي شَرَّدَتْني
وَتُحصي الجِراحَ التي أَحْرَقَتني

* تُفاجِئُني الشَّمْسُ
ما أَصْعَبَ الشَّمْسَ حينَ تُفاجِئْ
وَالجُرْحُ يَنزِفُ ما بين قَلبي وَيٰافا
تَرَجَّلْتُ مِن فَوْقِ هذي السِّنينْ
تَوضَّأْتُ بالعِطْرِ وَالياسَمينْ
وَلٰكنَّ جُرحي تَنَبَّهَ للمَرَّةِ الأَلْفِ
إِنَّ الجِراحَ تُحِبُّ شٰذىٰ البُرْتُقالْ

* وَتَمْضي القَوافِلُ
تَأتي القَوافِلُ

يا أَيُّها العاشِقُ المُغْتَرِبْ
لِماذا تَناثَرتَ حَقْلاً مِنَ القَمْحِ في سَهْلِ يافا
لِماذا تَدفَّقْتَ نَهْراً مِن العِشْقِ
غَابَةَ دِفْءٍ وَحُبْ ؟
لِماذا ؟ لِماذا ؟ لِماذا ؟

* ما عُدْتُ أُطيقُ لَهيبَ البُعْدِ
وَنارَ الهِجْرَهْ
فِي هٰذا الزَّمَنِ الفاجِرِ
في هٰذا الزَّمَنِ السَّاخِرِ
ضُميني يا أَرْضُ إليكِ
إلىٰ نَهْدَيكِ
لَعلي أَشْعُرُ بِالدِّفءِ
بِطيبِ اللُّقْيا

وَتَلْتَقي أَحْرُفُ فِلسطينَ لَدىٰ الزَّواتي وَأَسْماءُ بُلدانِها، ومآسي شَعْبِها بِبُطولاتِهِ وَشُهدائِهِ وَمُخيَّماتِهِ المُنْهارَةِ في خَليطٍ واحِدٍ مِنَ الرُّؤىٰ، لا فَرْقَ فيهِ بَيْنَ مُنْتَهىٰ العِشْقِ وَأَفْجَعِ المَوْت، تَلْتَقي في لَوْحةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الحُبِّ الفاجِع المُدَمِّر، لَسْتَ تَدري أَيْنَ يَبْتَدِىءُ فِيها الحُبُّ وَأَيْنَ تَبْتَدِىءُ الفاجِعَةُ وَالدَّمار، وَتَسْتَطيعُ إِنْ

شِئْتَ أن تُسمي ذلِكَ حالةَ تَفَحُّم، فَالشاعِرُ بَيْنَ الاحْتِراقِ الكَامِلِ وَبَيْنَ البَعْثِ الكامِل. وَتَستطيعُ أن تُسمِّيَهُ حَالةَ وَجْدٍ صُوفِيَّة، لأَنَّهُ عِشْقٌ سِحْريٌ خاصٌ تَنْدَمِجُ فيهِ الأَرْضُ بِالنَّاس، وَيَخْتَلِطُ التَّاريخُ بِالآتي، وَتَتَحوَّلُ الأَشجارُ غيداً وَالمُدُنُ مَواكِبَ أَعْراس، وشُهُباً وَأَشْرِعةً عَلىٰ المَوْج.

وَلَسْتُ في المَاوَرائيَّاتِ والمِيتافِيزيك إن قُلت: إنَّ عِشْقَ الأُنْثىٰ لدىٰ الزَّواتي هو الرُّوحُ، وَلٰكِنْ أيِّ أُنْثىٰ؟ إنَّكَ لَتحارُ في تَخيُّرِها وَتَحْديدِها، إنَّها الأُنْثىٰ - الرَّمْز... الأُنْثىٰ - الأُم التي تَحْمِلُ حِقَبَ الكَوْن، وَلا تَعْلَمُ أَنَّها الأُنْثىٰ - الشَّهادةُ الَّتي تُمَثِّلُ العَطاءَ دُونَ حُدود، وَهي في الوَقْتِ نَفْسِهِ فِلسْطين.

* تَعَلَّقَ قَلبِيَ بَيْنَ النَّدىٰ وَالنَّخيلْ
وَبَيْنَ المَسافاتِ وَالمُسْتَحيلْ
غَريبانِ نَحنُ... بَكَيْتُ عَلىٰ صَدْرِ غَزَّهْ
غَريبانِ نَحْنُ.. وَأَسْرَجتُ قَلبي
وَأَبْحرتُ في الذَّاتِ
أَحْرَقْتُ كُلَّ الحُدودْ
غَريبانِ نَحْنُ.. تَعالَي بِقُربي لِكَيْ لا يَرانا الجُنودْ
غَريبانِ إنَّا آلتَقْينا

كَريحٍ تُعانِقُ طَيْراً مُهاجِرْ
فَكيفَ أُعانِقُ نَفْسي بِنَفْسي
وَكَيْفَ أُهرِّبُ أَرْضي وَقَلْبي
فَليلي سُدودٌ وَعِشْقي قُيودْ
وَأَنتِ الظباءُ وَأَنْتِ الأُسودْ

الأُمُ عِنْدَهُ صُورَةُ الأَمْسِ وَالفاجَعةِ وَالأَمَل، يُناجيها فَلا تَعْلَمُ أَهُو يُناجي أُمَّهُ الحَقيقيَّةَ أَمْ يُناجي الأَرْض؟ أَمْ قَرْيَةَ زَواتا، أم كُلَّ أُم؟ لَسْتَ تَدْري. وَيَتحدثُ عَنْ الشَّهيداتِ شَهيدةً بَعْدَ أُخْرى: دَلال المَغربي، وحَياة بِلْبيسي، ولِينا النَّابلسي، ومُنْتَهىٰ عَوض الحُوراني، وفِرْدَوس مِسْمار، وسِهام الوَزَني، وَرجاء أَبو عَماشة.

وَيَتَحَدَّثُ الزَّواتي وَيَتَحَدَّث... وَلٰكن هَل هُو يَبكي الشَّهيداتِ في هذا الحَديث؟ أَم يَبْكي ذَاتَه العَميقَة؟ أَمْ يَبكي الفَاجِعَةَ النَّازِلَةَ بِشَعْبِهِ في كُلِّ مَكان... لَسْتَ تَدري!

وَيَحمِلُ الزَّواتي عِشْقَه، هَذَيانَه لِلأُنْثىٰ، حُمّى الحَنينِ في ضُلُوعِه. وَيَدورُ بِها في الأَسوْاق، وَعلىٰ كُلِّ جَمْع، صائحاً: إِنَّها أَنا، إِنَّها ذَاتي، وَلٰكِن هَلْ يَبكي عِشْقَهُ وَذَاتَهُ أَمْ يَبكي فِي الوَاقِع الحَبيبةَ أَم الآخرينَ؟ لَسْتَ تَدري... وَلَو لَمْ تَكُنِ الأُنْثىٰ لَدَيْهِ زَوْرَقاً مِنْ عَنْبَرٍ يَمْلأُ الكَوْنَ عِطْرا، لَوْ لَم تَكُنْ طَائرَ الفِينيقِ الذي

يَحْتَـرِقُ لِيُبْعَثَ مِنْ جَديـد، لَوْ لَم تَكُنِ الـرَّبيـعَ وَخمْـرَةَ الخَـوابي العَتيقةِ وَدبيبَ الدُّهورِ الأَطْوَل، لَوْ لَم تَكُنْ بَخورَ الاحتِراقِ وَوَرْدَةَ الغَيب. . . وَلَو لَم تَكُنْ فِلسطين. . . !!

* وَيَحْضُنُنا البَحْرُ طِفْلَيْنِ هاما مِنَ الوَجْدِ
جَاءا بِلا مَوْعِدٍ للرَّحيلْ
وَيُلْبِسُنا الآنَ ثَوبَ القَتيلْ

* لِعينيك أَبْدَأُ هٰذا النَّشيدَ
أُجَدِّدُ مَوْتي وَبَعْثي
وَأَنْتِ تَجيئينَ بَحْراً
تَجيئينَ عُشْباً
تَجيئينَ رَملاً يُفَجِّرُ صَحراءَ حُزْني
تَجيئينَ عِطْراً يُطَهِّرُ أَكْمامَ زَهْري

* وَما كُنْتُ أَعْرِفُ
أَنَّ السِّياطَ التي أَلْهبَتني
التي مَزَّقَتني
تُحاوِلُ تَدجينَ شِعْري وَما دَجَّنتني
وَحينَ ترَجَّلْتُ عَن صَهْوةِ الجُرحِ
عَن قِمَّةِ الرُّمْحِ

كانت يَداكِ تُعِيدُ الحَياةَ
وَتُلغي جَميعَ مَواعيدِ قَتْلي

3. معنى القهر

كُلُّ أَيامي الحَواضِر
تَنْظُرُ في قَلْبِ أَمْسِها
جاحِظَةَ العَينينِ لا شَيْءَ فِيهما
مِنَ الضِّغْنِ وَالخِزْي
وَأَحْيا غَبيًّا كَما قَد كُنْتُ جِئْتُ
جُثَّةً تَفَحَّمتْ مِنَ البِلى
أَظافِرُ أَقْدامي آلتوتْ
لَحْمي المَيِّتُ وَالوَشْمُ عَلَيه
الجَديدُ الأَحمَر
وَأَذْرُعي مُهَشَّمَةٌ
هَشَّمها السَّوْطُ الجَموح

دلماس (غينيا)

فِي صَدْرِ الفِلِسْطينيِّ فَجيعةٌ دَائِمةُ التَّفَجُّر، إِنَّها لا تَتَمثَّلُ فِي أَنَّهُ مَظْلوم، مَظلومٌ حَتىٰ العَظْمِ وَحتى الانْسِحاق الأَخير، وَلٰكِنَّها

فِي شُعورِهِ بِأَنَّهُ مَظْلومٌ عَبَثاً، مَسْحوقٌ دُونَ مُبَرِّر، ضَحِيَّةٌ مَجَّانِيَة، مَقْتولٌ وَالآخرونَ يُصفِّقونَ لِلقاتِل، العَبَثِيَّةُ هِيَ الذَّابِحة، إِنَّهُ مَأْساويُّ هٰذا العَصْر بِآمْتِياز، هُو الضَّحِيَّةُ الإِنْسانِيَّةُ الوَحيدَة، وَمَعَ ذٰلِك فَهُو إِنسانٌ في حَالةِ حِصارٍ مَحكومٌ بِأَنْ يَظَلَّ في الرُّكْنِ مَشلولاً إِلىٰ المَوْت، حَتى البطولةُ مُحرَّمَةٌ عَلَيْه، لَقَد وَصلَ نُقطةَ اليَأْسِ الْمُطْلَق، حَيْثُ الهمُودُ الأَبَدِي، فَلَيْسَ لِشَيءٍ أَيُّ صَدَى.

هٰذا عَلى الأَقلِّ مَا تَقولُهُ هٰذِه الأَعْمالُ الشِّعْرِيَّةُ فِي كُلِّ حَرْف، وَفيما بَيْنَ الأَحْرُف، وَلِهذا كَانَ القَهْرُ البُركانِيُّ هُوَ السَّيِّدَ فِيها، هُوَ حِبْرَها الأَسْوَدَ الطَّافِحَ حَتَّىٰ الفَيَضان. في «القَضِيَّةِ» الَّتي كَتَبها (كَافْكا)، حِينَ يُحاكَمُ «ك» بطلُ القِصَّةِ عَن جَريمَةٍ لا يَعْرِفُ مَا هِي؟ فِي مَكانٍ يَجْهَلُهُ مِنْ قِبَلِ مَحْكَمَةٍ لا يَعْلَمُ شَيْئاً عَنْها، وَبِمُوجَبِ قَانونٍ لا وُجودَ لَه... يَمْتَدِحُ المادِحونَ بَراعَةَ الكاتِبِ اليَهودِيِّ في تَحْليلِ العَبَثِ القَدَرِي، وَيَنْسَونَ ك «الفِلسطيني»، يَنْسونَ أَنَّهُ يَعيشُ في أَشْلائِه وَدَمارِ بُيوتِه، وَتمزيقِ أَطْفالِهِ أَفْجَعَ مَآسي العَبَث... وَأَنَّهُ مَع ذٰلِكَ في حِصارٍ صِهْيَوْنِيٍّ وَعَرَبِيٍّ وَعَالَمي: كُلُّ سُبُلِ التَّعبيرِ عَن بُطولَتِهِ مُخْنوقَةٌ حَولَهُ مِنَ البُنْدُقِيَّةِ المُزغْرِدَةِ إِلىٰ الهَمْسَةِ بَيْنَ اثْنَين.

وَيَصِلُ القَهْرُ إِلىٰ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ حِينَ يَصِلُ الشَّاعِرُ إِلىٰ

الاستِسْلامِ الأَخير:

* وَكانت دِمائي تُغَطّي الطَّريقْ
مِنَ الشَّرْقِ حَتىٰ المُحيطِ
أَعَدوا الحُشودَ وَصَفُّوا الجُنودْ
وَشَقّوا ضُلوعي...
وَأَعْلَوْا مَشانِقَ عِنْدَ الحُدودْ

* أَنا ذُلُّ الدِّينِ... وَعَهْرُ الكُفْرِ كَما شِئْتُمْ أَسْمُوني
فَجَميعُ الأَسْماءِ
السَّافِلَةِ لَدَيَّ تَصيرُ عَجيناً... طِينا
فِي هٰذا المَحْفِلِ
أُعطيكُم حَيْفا... يَافا... عَكَّا
وَالقُدْسُ لَكُم
وَلِكُلِّ السِّفْلِسِ... للزُّهْرِيِّ
وَللطَّاعُونِ مَكانا
أَمَّا عَنْ شَعْبِ فِلسْطين
فَهذا الشَّعبُ الغائِصُ
فِي الأَوْحالِ حَزيناً
سَنُقيمُ لَهُ قوقَعَةً

شَرْنَقَةً: قَبْرا
نَقْتُلُ في عَيْنَيْهِ
وَميضَ البَرْقِ
نَقُصُّ جَناحَيْهِ
المُكْتَنِزَينِ بِعبءِ الدُّنْيا
وَأَخيراً... نَكْسِرُ أَبْواقَ الحَرْبِ
وَنُصبحُ أَهلاً شَعبا...

نَكْسِرُها؟ حَالةُ القَهْرِ المُتَفَجِّرِ مِنْ هُنَا تَنْبُعُ، نَحْنُ نَجْتازُ زَمَنَ القَهْرِ الأَسْوَد، وَتَتَحولُ الدُّموعُ مُحيطاتٍ مُتَحَجِّرَة، وَتُصْبِحُ الجِراحُ أَفْلاكاً وَشُموساً وَبَراكينَ فِي الفَراغ، وَيَحولُ الأَلمُ دَياجيرَ أَبَدِيَّةً مالها مِنْ زَوال... وَعَيْنا فِلسطينَ العَميقَتانِ مَغْروسَتانِ فِي لَحْمِ الأَشْياء، تَتَحَدَّيان.. وَالصُّراخُ يَتَعالىٰ، وَلٰكِنَّهُ الصُّراخُ الأَخْرسُ لا يَسْمَعُهُ أَحَد، دُونَ صَوْت... دُونَ صَدى... دُونَ نِهايَة، وَالنَّاسُ يَتَحَوَّلونَ سَلاحِفَ وَجَراذينَ وَضِباباً مُرَّةً تِمْساحِيَّةَ الجُلُود!! وَيَتَشَهىٰ الشَّاعِرُ أَنْ يَمْتَلِكَ الصُّورَ لِيَنْفُخَ فِيهِ وَيَبْعَثَ مَن فِي القُبُور، وَلٰكِنَّهُ يَنْفُخُ في قِرْبةٍ «مَثْقوبَة». مَتىٰ تَمْتَلِىءُ مِنْ مُحيطِ الدَّمْع؟ مَا مِنْ أَحَدٍ يُصْغي... يَسْمَع... تَتَحرَّكُ شَفَتاهُ بِكَلِمَة، الحَذَرُ الجَاثِمُ كالطَّبَقاتِ الجُيولوجِيَّةِ يَخْنُقُ النَّدْرَةَ المُقَدَّسَة،

وَيَقْطَعُ عَليها دُروبَ الشَّمْس.

قَبْـلَ أَلْفِ سَنَـة، وَفي مِصْـرَ الَّتي حَكَمَهـا يَعقـوبُ بنُ كِلّس الوَزيرُ اليَهودِيُّ للفاطِميين، أَلْقىٰ شَاعِرٌ رُقْعَةً فِي المَسْجِدِ الجَـامِعِ كَتَبَ فِيها:

يَهـودُ هٰذا الـزَّمـانِ قَـدْ بَلَغـوا غَـايَـةَ آمـالِهم وَقَـد مَـلَكـوا!!
الجـاهُ فيـهِم وَالـمـالُ عِـنْـدَهُـمُ وَمِـنْـهُـمُ الـمُسْتَشـارُ وَالـمَـلِكُ
يـا أَهْـلَ مِصْـرٍ قَـدَ نَصَحْتُ لَكُم تَـهَّـودوا قَـد تَـهَـوَّدَ الـفَـلَكُ!!

فَمَتىٰ يـاشَجَرةَ الجُميـزِ الصَامِـدَةَ إِلىٰ الأَبَد؟ مَتَىٰ يَـا مَوْسِمَ الكُروم وَالنَّبيذ؟

وَيَقولُ الشَّاعِرُ لِلشَّوْكِ: آصْبِر! آصْبِر سَوْفَ تَتَحَوّلُ إِلىٰ زَهْرٍ وَشَلّالِ خَمْرٍ وَمِهْرَجانِ فَراديس...

في حِين يَـرىٰ الآخَرين، يَـراهُم... آتينَ كَالجـرادِ الأَصْفَـرِ... كَالوَباءِ الدَّاهِم.

أولئكَ الذينَ كَانَ الاحْتِقارُ مِن قَبْلُ خُبْزَهُم، الَّذينَ كَانوا مِنْ قَبْلُ لِلْغِيتو والإحْراق، ذَوو العُيون الخَزَرِيَّةِ وَالزَّرْقَاء، الّذينَ كَانوا دَوْماً ضَحايا عَبَثِيَّة، وَجَدوا أخيراً ضَحيَّتَهُم العَبَثِيَّـة، جَعَلوا أَنْفُسَهم أُجَراءَ أُجَراءَ لِجميعِ السَفَّاحين وَقَتَلَةِ الأَطْفال.

وَبِكُلِّ سُعارِ الجُوعِ وَالأُوامِ شَرِبوا الدِّماءَ كَالذِّئابِ الجَائِعةِ
أَواخِرَ الشِّتاءْ، كَانوا أَجْبَنَ مِن أَنْ يَنالُوا مِنْ أَصْحَابِ (أوشْويتِزْ)،
فَأَسْقَطوا بُطولاتِهم... مِن دَيْرِ يٰاسين إِلىٰ صَبْرا وَشَاتِيلا !

* لا تَفْزعوا...
صَبرا وَشاتيلا هُنا
لَيْلٌ بَهيمْ...
ذَبْحٌ مِنَ القَدَمينِ
مَوْتٌ فاغِرُ الشِّدْقينِ
بَحْرٌ مِنَ الظُّلُماتِ قَدْ لَفَّ البِلادْ
فَلْيَعذُرِ الآتونَ مِن مُدُنِ الرَّمادْ
لَم نَسْتَطِعْ تَنظيفَ مَوْتانا
وَلَمْ نَقْدِر عَلىٰ جَمْعِ الحَصادْ

* أَبْكي في القَلْبِ
ضَياعا، قَهْراً وَجُنونا
أَتَلوىٰ مِن هَوْلِ اللَّيْلِ
وَعُمْقِ الحُزْنِ وَذُلِّ الذِّكْرىٰ
أَتلوىٰ مِن هٰذا الزَّمَنِ الفاسِدِ
مِن زَمَنٍ تَكثُرُ فيهِ نِداءَاتُ العَهْرِ

وَتَنْتَصِبُ الأَصْنامُ جَلالا

* مَنْ باعَ بِلادي
مَن شِرَّدَ بِاليُتْمِ صغاري
مَن غَيَّرَ لَوْنَ الشَّمْسِ
وَخانَ دِماءَ الشُّهداءِ
مَنْ غَيَّرَ طَعْمَ الماءِ
وَزَوَّرَ وَجْهَ الأَشياءِ
يٰاوَجْهَ الحَقِّ أَنا مَذْهولُ
فَاللَّيْلُ يُلاحِقُني في غُرْفَةِ جَلادّي

* إِنّي مٰا زِلْتُ جَريحاً
إِنّي مٰا زِلْتُ أُسَمِّرُ في وَجْهِ التّاريخِ حِذائي ؟

إِنَّ العَدُوَّ لا يَلْتَهِمُ فِلسطينَ وَلٰكِنْ يَلْتَهِمُ عَيْنَي كُلِّ فِلسطيني... لَحْمَ كُلِّ فِلسطيني، يَلْتَهِمُ الأَجْيالَ الّتي تُولَدُ وَالأجيالَ الآتِيَة. يُريدُها أَنْ تُولَدَ عَمْياء، مَعْرَكَةُ آستِنْزافٍ أَخيرةٌ لِلوجُودِ العَرَبيِّ كُلِّهِ مِنْ خِلالِ الفِلِسْطينِيِّ الضَّحِيَّة. إِنَّ تُرابَ فِلسطينَ لا يُسْرَقُ مِنَ الأَرْضِ وَلٰكِنْ مِن صَدْرِ الإِنْسان، يُنْزَعُ كَما تُنْزَعُ الشَّرايِيْن، وَلأَنَّ العَدُوَّ يَعْرِفُ حُبَّ (يَهْوَه) وَلا يَعْرِفُ حُبَّ الوَطَن، فَإِنَّهُ لا يَعْلَمُ كَم ذٰلِك التُّرابُ مُتَجَذِّرٌ في الصُّدور، لأَنَّهُ

مُتَعَلِّقٌ بِخُرافَةٍ يَنْسِبُها لِلإلٰه، سَيَظلُ إلىٰ الأَبَدِ مُتَعَلِّقاً بِها بَيْنَ السَّماءِ والأَرْض، تُرابُ فِلسطينَ لَم يَعُد أَخْضَر... تُرابُ فِلسطينَ أَحمَرُ كُلُّه... كُتْلَةٌ مِن غَضَبٍ أَحْمَر... حَجَرٌ مِن دَمٍ أَحْمَر، لأَنَّهُ الإنسانُ المَقْهور:

* فَهذا دَمي فَتِّشوه
ثَلاثونَ عَاماً
وَشَيْخُ القَبيلَةِ عَبْرَ جِراحي يُسافِرْ
ثَلاثونَ عَاما !
مِنَ القَمْعِ وَالقَهْرِ تَحْتَ ضُلوعي تُهاجِرْ
ثَلاثونَ عاماً أُفَتِّشُ عَن مُوْطِنٍ يَحْتَويني
ثَلاثونَ عَاماً وَصَدْرِيَ شُباكُ نارْ
وَما كَفَّ قَلبي عَنِ العِشْقِ يَوْماً
وَما كَفَّ يَوْماً عَنِ الانْتِحارْ
وَما كَانَ يَوْماً يُحِبُّ المَنافي
وَلا الانتِظارْ

* وَبَيْنَ الدُّخولِ وَبَيْنَ الخُروجِ
آستَدارتْ عُيوني
غامَتْ مِنَ الجَلْدِ

شاهَدْتُ رَبَّ السَّماءْ
وَفي لَحظةِ الانبهارِ
آستويْتُ عَلىٰ النَّطْعِ . . . كَابَرْتُ
أَمْسَكْتُ سَيْفَ الخَليفَةِ في كِبْرياءْ
تَحَسَّسْتُ قَلبَكِ . . فَتَّحْتُ عَينيَّ
أَنْهَيتُ كُلَّ مَواعيدِ ذَبْحي
وَجَدَّدتُ عاماً لأَجْلِ البَقاءْ

وَيُلاحِقُ العَدُوُّ الشِّعْرَ بِكُلِّ مَكان، لأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ يُمْسِكُ بِكَلِمَةِ السِّحْر، وَيُدْرِكُ أَنَّهُ الخَطَر. إِنَّهُ لا يَبْكي. . . لا يُصَلِّي. . . لا يَتَسَوَّل. . . بَلْ يُقَاتِل. . . يُقَاتِل. وُلِدَ الشِّعْرُ الفِلسطينيُّ مُقَاتِلاً وَهٰاهُنا خَطَرُه، وَلِذَلِكَ يُلاحِقُهُ بِغَضَبٍ كَالجُنون، فِي البيتِ يُنْسَفُ نَسْفاً، في الاقْتِحَامِ عِنْدَ الفَجْرِ لِلفِراشِ المُهْتَرِىءِ، فِي الأَثاثِ المُشَعَّثِ المُلْقىٰ مِنَ النَوافِذ، فِي الزَّنْزانَاتِ صَرْخاتُها لا يَسَمَعُها إِلَّا الله، فِي الأَحْذِيَةِ المَشْنوقَة، في سُعالِ العُمالِ بِالمَصانِع، فِي مُصادَرَةِ الحُقولِ مِنْ تَحْتِهِ، فِي رَصاصِ الشَّوارِعِ لَا يُبالي أَيَّ طِفْلٍ أَصاب . . . في التَّأَوُّهاتِ عَلىٰ الجُدْرانِ المَنْسوفَة، فِي المَقابِرِ تَمْتَدُّ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ كَالأَعْشابِ الوَحْشِيَّة، في القَهْرِ القاتِلِ أَكْثَرَ مِنَ القَهْر.

وَلٰكِنَّ الشِّعْـرَ بِدَوْرِهِ يُـلاحِقُ العَدُو. . . يُـطَوِّقُهُ بِقيثـارَتِه. . . يُحـاصِرُه. . . يُحـاصِـرُه، مِنَ التُّـرابِ يَصْنَـعُ خُبْـزاً لِلنَّـاس، وَمِنَ البَحْرِ يَستَعيرُ الـزَّمَنَ الصَّابِـر، إِنَّهُ يَكْشِفُ لِلعـالَمِ أَنْيابَـه، أَظافِـرَهُ المُجْـرِمَة. . . عَـلاقاتِـهِ المَشْبـوهَـة، وَيُحـوِّلُ رَصـاصَـهُ شُعَـلاً فِي المُسْتَنْقَعِ. . .

* مِنْ لَيْلِ العَهْرْ
مِنْ لَيْلِ المَصلوبينَ عَلىٰ أَعْوادِ القَهْرْ
مِنْ لِيْلِ المَحرومينَ
وَمِنْ أَحْزانِ المَحْزونينَ
المَشنوقينَ عَلىٰ أَحْبالِ الصَّبْرْ
أَخْرُجُ مَحْروقَ الكَفَّينِ
عَلىٰ وَجْهي عَاهاتُ العَصْرْ
أَخْرُجُ بِآسمِ الحُزْنِ الآتي
بِآسْمِ المَوْتِ
النَّابِضِ في أَحْشَاءِ القَبْرْ
بِآسْمِ الأَشْلاءِ
المَزْروعَةِ فَوْقَ الجَمْرْ
بِآسْم الغَضَب الآتي مِنْ رَحْمِ الدَّهْرْ
يَئِسَ الدَّهْرُ وَنَفِدَ الصَّبْرْ

مَجْنونٌ مَنْ يَحْسِبُ
أَنَّ الصَّبْرَ طَريقُ النَّصْرْ
مَجْنونٌ مَن لا يَحْرُثُ مَوْجَ البَحْرْ
مَنْ لا يَحْرِقُ وَجْهَ الغَدْرْ

وَحينَ يَقْرَأُ السَّجينُ في الزِّنْزانَةِ كَلِمَةَ الشِّعْرِ يِبْتَسِم، وَحَينَ يَمْسَحُ العامِلُ عَرَقَهُ وَهُو مُنْهَكٌ يَخْطُرُ في بالِه فَيَبْتَسِم، وَحينَ يَتَذَكَّرُها المَنْكوبُ فَوْقَ أَنْقاضِ بَيْتِهِ يَبْتَسِمْ.

هٰذِهِ البَسْمَةُ هِيَ الأَمَل، لأَنَّها هَزيمةُ العَدُوِّ الخَائِفِ أَبَدا، إِنَّهُمْ عَمالِقَةُ النَّارِ كُلُّ هٰؤُلاءِ الشُّعَراءِ، هُمْ خِصْبُ الأَرْض، نَجْمَةُ الخَلاصِ الّتي لا تَغيب. وَسَيَظلونَ يُغَنّونَ لِفلسطين، لِتَظلَّ حَيَّةً في نُفوسِ أَبْنائِها إِلىٰ الأَبَد، وَتَكْتَسِحَ السَّنابِلُ الجَرادَ وَتَخْضَرَّ الأَرْض.

4 . معنى الشتاء

* كَلِمات ! نَعَم كَلِمات
لٰكِنَّها كَلِماتٌ دَامِيةٌ
كَلِماتٌ هِيَ الفَيضَانُ

وَالرِّيحُ المُحْتَرِقُ، حُمَّى المُسْتَنْقَعِ وَالشَّرَر
وَالنَّارِ فِي الغَابَةِ وَاللَّحْمِ المَحرُوق
وَالمُدُن المُلْتَهِبَة !
الآنَ يُضيءُ الأُفُقُ
وَيَقِفُ الشَّاعِرُ فِي خِدْمَةِ الجَمَاعَة

ايميه سيزير

مَعْنَىٰ الشِّتاء... الوَحيدُ الذي لا يَكْمُنُ فِيه، وَلٰكِن في أَنَّهُ دَعْوةٌ لِلرَّبيعِ المُقْبِل، في أَنَّهُ نِداءٌ لِما تُخَبِّئُهُ الأَرْضُ عَلىٰ الصَّمْتِ وَاليَباب، وَفي هٰذِهِ الأَعْمالِ الشِّعْرِيَّةِ كُلُّ مَعنىٰ الشِّتاءْ... ريحٌ ريح... وَعَواصِفُ غاضِبَة... وَهَزّاتُ أَرْضٍ وَنَوافِذ، وَتَكْتَكَةُ أَسْنانٍ عَلىٰ الصَّقيعِ الرَّمادي، وَمُتْعَبونَ يَسْقُطونَ عَلىٰ الثُّلوجِ فَيَنْهَضونَ ثُمَّ يَسْقُطونَ فَيَنْهَضون، وَظُلْمَةٌ تُطارِدُ الغُيومَ الهارِبَة، وَذِئابٌ تَعوي لا تَدْري أَيْنَ تَعْوي، الأَغْصانُ العارِيَةُ وَحْدَها تُقاوِم، تَنْتَظِرُ الرَّبيعَ الأَخْضَرَ الّذي يَأتي وَلا يَأتي... فَالكَوْنُ كُلُّهُ قِطْعَةُ مَعْدَنٍ كَتيمَة، لَوْحَةٌ كَثيفَةٌ تَتَنَفَّسُ مُخَبِّئَةً أَحْلامَها... لِتَطْلُعَ مِن وَراءِ القَبْر، مِن قَلْبِ المَوْتِ بَعْدَ حِين !

* سَأَبْدَأُ مِنْ بَسْمَةِ الفَجْرِ
مِن لَحْظَةِ الانكِسارِ

مِن فَوقِ عَينيكِ أَبدأُ
مِن عَهْرِ هذي السِّنينَ العِجافِ
من الانتِحارِ إلى الانتِحارِ
سَأنمو وَأَكْبُرُ عَبْرَ الحِصارِ
سَأُنهي حِصاري وَأَبني جِداري
وَأَزْرَعُ صَدْرَكِ وَرْدي وَغاري

وَهٰكَذا... فَمَعَ أَنَّ الجُرْحَ يُسَيْطِرُ عَلىٰ هٰذِهِ الأَعْمالِ كُلِّها، وَيَكادُ يُطِلُّ مِنْ كُلِّ سَطْرٍ فِيها، فَإِنَّهُ تارةً يَرْتَبِطُ «بِآبْتِسامَة»، وَأُخْرىٰ يَمْسَحُ عَليهِ «بِجميزِ غَزَّة»، وَثالِثَةً يَغْسِلُ بِالدِّماء، وَرابعةً يَزْرَعُ صَبراً وَلَوْزاً وَتينا. وَيَرْكَبُ الشَّاعِرُ المُقاتِلُ صَهْوَتَهُ أَوْ يَحولُ نَارا وَوُعودا... ثَمَّةَ دَوْماً عَويلٌ لِلجُرْحِ يَمْشي مَعَهُ لِيُلْغِيَه. إِنَّ عَظَمَةَ هٰذا الجُرْحِ أَنَّهُ يَحْتَضِنُ دَوْماً مَعَهُ الرَّبيعَ الخَبيء، تَوازُنِيَّةُ الطَّرَفينِ هي التي تَمْنَعُ الذُّهولَ مِنْ أَنْ يَحولَ جُنونا... تَحْفَظُ لِلشِّعْرِ عَبَقَهُ القُدُسِيَّ وَرِسالَتَه، لأَنَّها تُبَشِّرُ بِالآتي وَتَحْتَفِظُ دَوْماً بِالأَمَل.

* وَبَيْنَ اليَومِ وَالأَمْسِ
لَقَد كَذَبوا
فَإِنَّ البَحْرَ لَم يُحْرَثْ

وَلم تَهدأ شَواطيهِ
وَأَنَّ الرِّيحَ لَن تَقوىٰ عَلى جَبَلٍ
وَإِنْ قَلَّتْ رَواسيهِ
فَنحنُ هُنا وَنَحنُ هُناكَ
إِنْ شَاءوا وَإِن رَفَضوا
وَإِن بالظُّلْمِ وَالإِرْهابِ قَد حَكَموا

هَلِ الشِّعْرُ كَلِمَة ؟ . . . نَعَم ! أَحْرُفٌ تَجْتَمِعُ وَتَفْتَرِقُ مَعَ الرِّيح ، وَلكِنَّكَ لا تَدْري السِّرَ فِي أَنَّها كَلِمَةٌ مُصَدَّقَة . وَفي أَنَّ وُعُودَها عُهودُ وَعُيونُ أَنْبِياء ، وَلا السِّرَ في أَنَّ لِهٰذِه الكَلِمَةِ قُوَّةَ الرَّصَاصَه ، وَعِنادَ الذِّئْبِ الجَائِع ، وَرَهَبَةَ الجِنِّياتِ في اللَّيْل ، وَاغراءَ مَغاراتِ عَلي بَابَا المَلأىٰ بالكُنُوز !

عَلىٰ أَنَّ الشَّاعِرَ لا يُطْلِقُ الكَلِمَةَ نُبوءَة ، وَلٰكِنَّهُ يَتحرَّرُ بِها ، لا يَبْعَثُها قَانونا ، وَلِكنْ يَتَخَفَّفُ مِنْها . . . يُلقيها عَنْه . إِنَّها عِبءُ أَمانَة ، حَمْلٌ وَوِلادَة ، الشَّاعِرُ كَالشَّجَرَةِ المُثْقَلَةِ بالثِّمار ، إِنْ لَمْ تَتَلَقَّفْها يَدُ القَاطِفِ أَلقَتْ ثِمارَها عَلىٰ الأَرْضِ ، لتَعودَ وَالبُذورُ إِلىٰ التُّراب .

وَالزَّواتي يُلْقي كَلماتِهِ دُونَ تَنْظِير ، دُونَ مَنْطِقٍ مَدْرَسي ، دُونَ فَلْسَفَة ، يَذْروهَا لِلرِّيح ، وَهو وَاثِقٌ مِنْ أَنَّها سَتَجِدُ النُّفوسَ

التي تَتَشَبَّثُ بِها وَتَتَجَذَّرُ فِيها، وَلَيْسَ عِنْدَهُ سِوىٰ مَقولَتين:

الأُولىٰ تُعَبِّرُ عَنْها دَواوينُهُ الثَّلاثَة: عَبيرُ الدِّماء، وثُلاثيَّةُ المَوْتِ وَالارتِحال، وقَصائدُ مَمنوعَةُ التَّجْوال، وَهِي المَأْساة. وَالثَّانِيَة تُعَبِّرُ عَنْها الدَّواوينُ البَاقِيَة؛ بالحِرابِ عَلىٰ وَجْهِ الضَّياع، وفاتِحَةُ المَوْتِ وَالغَضَب، وتَرْفُضُ السَّرْجَ الجِياد، وقُبْلَةٌ عَلىٰ جَبينِ الشَّمسْ، وآتونَ مِنْ مُدُنِ الرَّماد، وقَلْبي عَلىٰ وَطَني وَهِيَ الأَمَلُ بِالنِّضال... صَحيحٌ أَنَّ الدُنْيا تُمْطِرُ بُؤْساً، لٰكِنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ المَوْتَ سَبيلُ الحَياة، وَيبتَسِمُ عَلىٰ شِفاهِ الجُرْح، لِيَخْرُجَ الفَجْرُ مِن وَراءِ المَوْت.

والزَّواتيُّ مُحاصَرٌ بِقَضيَّتِه، يُقاتِلُ عَلىٰ جَبهاتٍ عَديدَة، ضِدَّ العَدُوِّ الأَزْرَق، وَضِدَّ الذُّلِ وَالأَذِلاّء، وَضِدَّ الخَوَنَةِ العَبيد، وَضِدَّ تَغَيُّرِ لَوْنِ الشَّمْس، وَتَحَوُّلِ طَعْمِ المَاء، لٰكِنَّ قِتالَهُ الحَقيقِيَّ إِنَّما هُوَ مَعَ الكَلِمَة. إِنَّهُ يُريدُها أَنْ تَحْمِلَ أَكْثَرَ مِمّا تَحْمِل. تُحِسُ أَنَّهُ يُحاولُ شَحْنَها كَالمُتَفَجِّرَةِ بِكُلِّ ديناميتِ الأَرْض. وَلٰكِنَّ الحُروفَ تَخونُه... تَتَجَمَّدُ قَبْلَ أَنْ تَتسِعَ لِما في ذَاتِه... وَتَشْعُرُ بِوضوحٍ أَنَّهُ وَهُو يُحِبُّها يَلْعَنُها، وَأَنَّهُ وَهُوَ يَكْتُبُها يَرْثي لِقُصورِها... وَلٰكِنْ فِي النِّهايَةِ تَتَلاشىٰ أَمامَ الشَّاطِىءِ كَتَلاشي اللَّهَبِ عِنْدَ المَغيبِ بَيْنَ الظُّلْمَةِ وَاللانِهايَة. وَكَضَياعِ الفِكْرِ فِي المُطْلَقِ وَالمَاوَراءِ يَتَلاشىٰ

الشَّاعِرُ في كَلِماتِه، لا تَبْقىٰ مِنْهُ عَلىٰ الوَرَقِ سِوىٰ كَلِماتٍ تَطيرُ كَوَرقِ الخَريف، وَقَد يَهْجُرُها النَّاسُ كَأَرْصِفَةِ المَوانِىءِ في آخرِ اللَيْل.

لٰكِنَّها مِنْ خَلْف اللَّيْل تَتَصاعَدُ وَتَتَصاعَدُ غِناءً مُبْهماً كَنِداءِ السِّيرِيْن، وَتَظَلُّ تُنادي وَتَظَلُّ تَحْمِلُ الخُبْزَ وَالأَمَلَ لِلمُتْعَبين.

* وَسَوْفَ نَظَلُّ نَرْتَحِلُ
وَسَوْفَ نَظَلُّ نَشْرَبُ حُزْنَ مَن ماتوا
وَمَن جاؤوا
وَمَن بالغَيْبِ لَم يَأْتوا
وَسَوْفَ نَظَلُ نُبْحِرُ كاظِمينَ الغَيْظَ
أَسْياداً وَرُوّادا . . .

* وَنَكْبُرُ يا حُزْنَ الأَحْزانِ
وَنَصْنَعُ مِن هٰذا الذُّل إباءً
وَشُموخاً

إِنَّ الشَّاعِرَ يَصِلُ قِمَّةَ الفَرَحِ وَالأَمَلِ وَهُو يَقول:

* أنا الحُبُ وَالأَرْضُ وَالزَّعْفَرانُ
أنا الطِّيبُ وَالبَلْسَمُ المُسْتَحَبُّ

أنا الغارُ وَالجُلَّنارُ
هُنا مِن ثَنايا الجِراحِ أَجيءُ
أُعيدُ الحَساسينَ لِلبُرتُقال. . . !!

5 . كوفاديس ؟[1]

. . . «فَإِنِّي أُغَنِّي مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ»

المتنبي

أَن تَنْظُرَ في العَدَمِ دُونَ أَن تَرْتَجِف، أَنْ تُشْرِفَ عَلىٰ الهُـوَّةِ العُـظْمىٰ بِسَوادِهـا اللَّانِهـائِي دُونَ أَنْ يَـرِفَّ لَـك جَفْن، أَن تَـرْمي الهَلَعَ وَالشَّيْطَانَ وَالمَوتَ بِنَظْرَةِ آحْتِقار، تِلْكَ هِي البُطولَةُ الكُبْرى. وَالشَّاعِرُ المَأْساوِيُّ هٰذِهِ وَظِيفَتُه! هٰذا قَدَرُه! إِنَّهُ يبشِّرُ بِغَدٍ لَا يَراه، وَلٰكِنْ يَسْتَشِفُّهُ وَيُؤْمِنُ بِأَنَّهُ سَيَكون، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِـهِ أَحَد. وَحِينَ تَنْهَارُ كُلُّ القِيَمِ يَـظَلُّ الشَّاعِـرُ أَمامَ قَلْبِـهِ وَمِزْمـارِه. قَدْ يَعْـرُجُ إِلىٰ السَّماء، وَقَد يَسْتَفُّ تُرابَ الأَرْضِ، وَلٰكِنَّهُ يَظَلُّ وَحْدَهُ المُؤْمِنَ بِما يَـراه. وَيُغَنِّي عَلىٰ مِزْمـارِه لِتَعودَ الـرُّوحُ إِلىٰ طـائِـرِ الفِينيقِ الَّـذِي آحْتَرَق. . . لَعَلَّهُ يَعودُ إِلىٰ الحَياة! الأَشْجارُ لا تَمـوتُ واقِفَةً فَقَط،

---

(1) كَلِمَةٌ لاتِينِيَّةٌ تَعني إِلىٰ أَيْن؟ وَيَذْكُرونَ أَنَّ السَّيِّد المَسيحَ عَلَيهِ السَّلامُ قالَها.

وَلٰكِنَّها تَيْبَسُ ثُمَّ تَخْضَرّ، وَتَيْبَسُ ثُمَّ تَخْضَرُّ كُلَّ رَبيع، وَ يَبْكِي المَوتُ قَهْراً.

فاجِعةُ الشَّاعِرِ الكُبرىٰ حِينَ يَرىٰ أَنَّهُ في طَريقٍ وَالجُموعُ الّتي يُغَنِّي لَها في طَريقٍ آخَر. إِنَّهُ عِنْد ذَلِكَ يَصْرُخ... يَصْرُخُ مِلْءَ صَدْرِهِ المَذْبُوح:

يا شَعْبيَ الجَريح! أَيْنَ أَمضي وَكُلُّ هٰذِهِ الأَرْضِ مِنْ خَوْفِ المَوْتِ في مَوْت.

يٰا أَنايَ التَّعيسْ
كُوفادِيسْ ؟

* خَجِلٌ أَتَلَمَّسُ قِنْديلي
وَأُفَتِّشُ بِالإِبْرَةِ عَنْ وَطَنٍ وَأُغامِرْ
خَجِلٌ أَبْحَثُ عَن وَطنٍ في وَطني وَأُهاجِرْ
خَجِلٌ أَتَفَرَّسُ فِي لُغَةٍ
لَا تُشْعِلُ أَحْرُفَها غَضَباً
لا تَعْرِفُ كَيْفَ تُقاتِلْ
إِنَّ العَالَم مُجْتَمِعاً لا يَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ طِفْلاً
فِي عَيْنِ الحُلْوَةِ
أَنْ يَمْسِكَ رَشَّاشاً وَيُقاتِلْ

إنَّ العَالَم لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَقْتُلَ طِفلاً فِي غَزَّةَ
يَحْمي مَسْجِدَهُ وَيُقاتِلْ
إنَّ العَالَم كُلَّ العَالَمِ
لا يَقْدِرُ أَنْ يَقْطَعَ كَفَّيْ طِفْلٍ
فِي بَيْتِ المَقْدِسِ يَحْمِلُ سِكِّيناً
حَجَراً وَيُناضِلْ

* يا هٰذا الجَسَدُ الفِضِيُّ المُتَلأْلِىءُ بِالغُرْبَةِ
كَمْ أَغْرَتْكَ الشَّهْوَةُ لِلنَّخْلِ العَرَبيِّ
فَكَيْفَ تُهاجِرْ ؟
كَيْفَ تَكَوَّنَ هٰذا اللَّيْلُ
وَشُقَّتْ أَرْحَامُ النِّسْوَةِ فِي تَلِّ الزَّعْتَرِ
وَدِمَاءُ الأَطْفَالِ الرُّضَّعِ
كَيْفَ آنْداحَتْ كَعَصيرِ التُّوتِ البَرِيِّ ؟؟
مَنْ أَرْخَصَ هٰذا الدَّمَّ
وَأَغْلىٰ صَفْقاتِ النِّفْطِ العَرَبِي

مِنْ هٰذِهِ المُشْكِلَةِ تَنْدَلِعُ المَأْسَاةُ الفاجِعَةُ عِنْدَ الزَّوَاتي !
إنَّ هٰذا الشَّاعرَ، فِي الخِتام، وَفي جُمْلَةٍ وَاحِدَة، مَحْكومٌ مَسْكونٌ مَجْنونٌ بِثُلاثِيٍّ مَسْحور: المَثَلُ الأَعْلىٰ الّذي لا يُطَال، وَالايمانُ

بـالتَّحريـرِ وَالعَوْدَة، وَمَضْمـونُ المَوْتِ وَالبَعْثِ! عَلىٰ هٰـذا المُثَلَّثِ يَقومُ كِيانُه وَتِمثالُه... وَتَقومُ مَنَصَّةُ إِعْدَامِه مَعاً! إِنَّهـا رَكائِـزُ ثَلاثَـةٌ كـأَثْقـالِ الحَـديـدِ الَّتي يُغَلَّلُ بِهـا المُغْـرَقـونَ فِي البَحْـر. تُقَيِّـدُهُ وَتَسوقُه. وَكُلَّما طَفَا أَعَادَتْهُ مَرَّةً أُخْرىٰ إِلىٰ القَـاعِ. لَمْ يَعْرِفْ بَعْـدُ أَنَّهُ مَحْكومٌ عَلَيْهِ بِالمَوْتِ الحَي... بِالمَوْتِ وَعَيْناهُ تَنْظُرَان!

لَمْ يَعْرِفْ بَعْدُ أَنَّهُ سِيزيفُ المَحْكومُ عَلَيهِ بِنَقْلِ الصَّخْرَةِ إِلىٰ قِمَّةِ الجَبَلِ أَبدَ الآبِدينْ، كُلَّما كَادَ يَصِـلُ بِها أَفْلَتَتْهـا الأَبَالِسَـةُ مِنْ يَدَيْه!

وَلَمْ يَعْرِفْ بَعْدُ أَنَّـهُ أَوْرفيُوس الَّـذي يُحَاوِلُ أَنْ يَنْتَصِـرَ عَلىٰ المَوْتِ بِالحُب... وَأَيْنَ الحُب؟ فَأَيْنَ تَذْهَبُ بِنَفْسِكَ أَيُّها الـرُّوحُ المُنْفَلِتُ مِنْ مَلَكُوتِ الشَّيْطان؟

يَا شَاعري التَّعيسْ! إِلىٰ أَيْن؟

كُوفادِيسْ؟

* آهِ يا كُلَّ القَبائِلْ
أَيُّها الشَّعْبُ الَّذي يَحْيا عَلىٰ المَوْتِ
وَبالمَوتِ يُتاجِرْ
أَنْتَ مَقْتُولٌ وَقَاتِلْ
أَنْتَ مَهْجورٌ وَهاجِرْ

آصْهَرِ القَيْدَ فَإِنَّ القَيْدَ زَائِلْ
وَآحْمِلِ الجُرْحَ حِداءً ومَشَاعِلْ
اشْعِلِ الخَيْمَةَ نَاراً وَلَظىٰ
آمْلأ البَيْداءَ غاراً وَسَنابِلْ
إِنَّ مَنْ يَقْتُلُ طِفْلاً وَاحِداً
يَقْتُلُ اليَومَ طَوابيرَ العَشائِرْ

الزَّواتي يَرْفُضُ السِّياسَةَ وَإِنْ كانَت كُلَّ حَياتِه. لا يَفْهَمُها وَلاَ تَفْهَمُه. إِنَّهُ يَخْتَرِقُ كُلَّ الأُطُرِ وَكُلَّ الأَيْدُيولوجِيات... لِيَصِلَ إِلىٰ قَلْبِهِ، لِيَرىٰ لَوْنَ عَيْنَيه. كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَضُمُّ كُلَّ الأَيْدُيولوجِيّاتِ عِنْدَه وَكُلَّ الأَحْزَابِ وَكُلَّ العَقائِد... إِنَّها فِلِسطين!

أَضْلاعُهُ تَتَقَطَّعُ مَعَ كُلِّ طِفْلٍ فِلَسطينيٍّ يُذْبَح، مَعَ كُلِّ بُرتُقالَةٍ تُغْتال، مَعَ كُلِّ بَيْتٍ يُنْسَف، مَعَ كُلِّ فِلسطينيَّةٍ يُسْكِتُها الرَّصاصُ إِلىٰ الأَبَدِ. إِنَّهُ حُرُّ الجَناح. الشِّعْرُ حُرِيَّة، فَإِنْ لَمْ يَكُن حُرِيَّةً فَليسَ بِشَيءٍ! وَالزَّواتيُّ يُطِلُّ عَلىٰ المأْساةِ كُلِّها أو يَلْثُمُ جِراحَها كُلَّها مَعاً. يَعْرِفُ القِمَمَ كالنُّسورِ المُطِلَّة، وَلا يَعْرِفُ السُّفوحَ وَالكُهوف. وَدَّعَ كُلَّ الأُطُرِ الحِزْبِيَّةِ وَالعَقائِدِيَّةِ لا عَنْ قِلىً، وَلكِنْ عَنْ مَحَبَّةٍ لِلجَميع. إِنَّه يَحتَضِنُ بِحَنانٍ عَجيبٍ كُلَّ مَنْ يَحْتَضِنُ وَطَنَه، والوَطَنُ هُو الحُبُّ الأَوَّلُ وَالآخِر. قَلْبُهُ حَالَ

فَحْماً، جَنازَةً، مَقْبَرةً يَستَوي فيها كُلُّ شَيء. لا مَكان فيها للبُغْضِ وَالحِقْدِ وَالتَّحَزُّبِ. مَلأَها وَحَدَهُ الوَطَن، مَلأَها الحُبُّ المُطْلَق ! إنَّ الَّذِين آختاروا وَادِيَ الالتِزام، وَهُمْ يَظُنونَ أَنَّهم يَصْعَدون، جَهِلوا أَنَّهُم رَهَنوا كَلِمَاتِهم في السُّوق. آخْتاروا عُبودِيَّةَ الكَلِمَة. آخْتاروا أَن تَكْتُبَ لَهم قَوافِيهم أَقْلامُ السِّياسِيين.

وَحينَ يَكونُ الوَطَنُ مَسْروقاً عَلىٰ خُيولٍ مِن غُبارٍ وَنارْ، عَلىٰ خُيولٍ تَرْكُضُ فِي المَجْهُول، وَأَهْلُهُ يَتَعَثَّرُونَ وَراءَهُ حُفاةً عَلىٰ الشَّوْك، فَلا مَجالَ للتَّساؤُل: مِنْ أَيِّ جَبْهةٍ أَنْت؟ ولاَ مِنْ أَيِّ فَريق؟ وَلا حَتَّى إِلىٰ أَيْن ؟
كُوفاديس ؟

* يَا وَطَني المُحْتَلَّ المَطْعونَ
بِسَيْفِ الرِّدَّةِ وَالغِلمانِ
تَعيشُ رَهينا
يَا وَطَني المَسْبِيَّ
بِأَقْزامِ العَصْرِ
بِآبارِ النِّفْطِ
المَشنوقَ بِكُلِّ العُقُلِ العَرَبِيَّةِ
بِالرَّجْعِيَّةِ وَالأَحْزانِ تَخِرُّ صَريعا

* ضَاقَ الحِصارْ
طَالَ الحِصارْ
وَعواصِمُ الوَطَنِ الأَغَرِّ
مِنَ المُحيطِ إلىٰ الخَليجِ عَمَّها الغَضَبْ
فَأَشْعَلوا الخُطَبْ
وَأَخْمَدوا اللَّهَبْ
يَا أَيُّها العَرَبْ
كَفَىٰ صَخَبْ !!
تَبَّتْ يَدا أَبيكُمُ وَتَبْ
لَمْ يُغْنِ عَنْكُمْ نِفْطُكُمْ وَلا الذَّهَبْ
لَا تُطْعِموا لَحْمَ العُروبَةِ لِلعَرَبْ

المَوتُ عِنْدَ الزَّواتيِّ هُوَ البَعْث، وَالبَعْثُ هُو المَوْت في مَفْهومٍ واحِدٍ عِنْدَه، فِي جَدَلِيَّةٍ دَوْرِيَّةٍ لَا تَنْفَصِم. وَلِذَلِك كانَ المَوْتُ فَرَحاً وَكانَ أَمَلا. إِنَّهُ عُيُونُ الرَّبيعِ الخَبيئَةُ فِي ضُلوعِ الشِّتاء. الَّذِي يُرْعِبُهُ هُو الصَّمْت، الصَّمْتُ الَّذي يَضِجُّ بِكُلِّ الاحْتِمالات. لِذَلِكَ كانَ الشَّاعِرَ الصَّارِخَ عَلىٰ الدَّوام. وَكَمَا قَال بَعْضُ شُعراءِ الزَّجَل :

بِتْحِسْ عَاصَوْتِ الصَّدىٰ الهَرْبَانْ
وِدْيَانْ عَمْ تُرْكُضْ وَرا وِدْيَانْ !

كِيانُهُ كلُّهُ يَهْتَزُّ مَعَ الصَّـرْخَة، وَتَهْتَـزُّ مَعَهَا الـطَبيعَةُ وَالأَشْيـاءُ راكِضَـةً بِكُلِّ آتِّجـاه. إِنَّهُ لاَ يَقـولُ شِعْـراً، إِنَّـهُ فَقَط يَصْـرُخُ كُـلَّ لَحْـظَة. يَقولُ كُـلَّ لَحْـظَة: أَعْمِـدَةُ «الصَّخْـرَةِ» هِي أَعْمِـدَةُ قَلبي، وَالأَطْفـالُ هُمْ وَحْـدَهمُ الشُّعـراءُ الحَقيقيُّـون، لأَنَّهمُ عَـرَفـوا كَيْفَ يَسْتَلْهِمـونَ مِن «الصَّخْـرَةِ» طـريقَ الغَـدِ وَسِـلاحَ الغَـد. عَـرَفـوا القَصيدَةَ الخَالِدَة، وَكَتبوها بِالحَجَر! هُم وَحْدَهُم الَّذينَ تَلتَقي فِيهم جَدَلِيَّةُ البَعْثِ وَالمَـوتُ، لأَنَّهمُ لا يَعْرِفـونَ أَنَّهُم يَموتُـون. الحَجَرُ مَصْنـوعٌ مِنْ أَجْسـادِهِمُ التَّي غَـذَّتهـا هٰـذِه الأَرْض. وَمِنَ الأَرْضِ نَفْسِها صُنِعَتْ أَجْسادُهُم، فَهُمْ لا يَشْتَكُـونَ إِنْ عَادوا إِلىٰ الأَرْض. إِنَّهُم يَعـودونَ إِلىٰ الأُمِّ المُطْلَقَـة... هُمْ وَحْدَهُمُ الـذينَ أَثْبَتوا أَنَّ قِمَـةَ «التِكنُولـوجيا» تَسْتَـطِيعُ أَنْ تَلْتَقيَ مَـعَ البِـدائيَّـةِ الأُولىٰ وَجْهـاً لِوَجْه، دُون أَن تَهْزِمَها، فِي حَجَرِ الفِلسطينيِّ الطِّفْل!

أَفْجَعُ المَاسي أَلاَّ يَبقىٰ مَعَ الشَّاعِرِ إِلاَّ الطِّفْـلُ وَالحَجرْ! فِي حين يَسـري الهَمْسُ المَرْعـوبُ فِي شَرايينِ القَـادَةِ والـزُّعَمـاء... وَيَتساءَلون: إِلىٰ أَيْن؟

كُوفايسْ!

* حَرَّرْتَ لَوْ حَجَرٌ يُفَجِّرُ غازِيا
وَنُصِرْتَ لَوْ عَرَبٌ تُجيبُ مُنادِيا

وَجَدَلْتَ مِنْ شَعْرِ الشُّموسِ مَشانِقاً
لِلحاكِمينَ فَما تَرَكْتَ مُداجِيا
الرَّاقِصونَ عَلىٰ ضِفافِ جِراحِنا
والسَّارِقونَ الحُلْمَ غَضَّا زاهِياً
العاجِزونَ عَلىٰ حُطامِ عُروشِهِمْ
وَالهادِمونَ وَما تُصادِفُ بانِيا
الخانِعونَ النَّاعِمونَ بِجَهْلِهِمْ
قَبَروا الرُّجُولَةَ لَيْتَ فِيهِم ضَارِيا
هُمْ يَشرَبونَ الرَّاحَ مِلْءَ كُؤوسِهِم
وَيَظَلُّ شَعبي في المَنافي صَادِيا

* يا قُدْسُ يا أَلَقَ الطُّفولَةِ ناعِساً
الحُلْمُ باتَ عَلىٰ هِضابِكِ باكِيا
مَدَّ الظَّلامُ عَلىٰ رُباكِ جَناحَهُ
وَاللَّيلُ مِنْ فَوْقِ المآذِنِ ساجِيا
وَالمَسجِدُ الأَقْصىٰ يُقَلِّبُ كَفَّهُ
وَأَذانُهُ صَوْتُ العَواصِفِ داوِيا
حَشَدوا لَهُ الأَوْغادَ رَغْمَ أُنوفِهِم
فَتَجمَّعوا سَدَّاً وَنَهْراً طامِيا

دَاسوا عَلىٰ القُرآنِ في عِزِّ الضُّحىٰ
فَتَظاهَرَ الأَطْفالُ.. وَا قُرآنِيا
يا مَنْ رَأىٰ نَاراً تُحَرِّقُ نَفْسَها
وَتَصُبُّ في أَحْشائِها بُركانِيا
هُمْ كُلَّما لِلحَرْبِ نارٍ أَوْقَدوا
فَاللّهُ يُطْفِئُها وَيُذكي نارِيا

وَالـزَّواتيُّ يُؤمِنُ بِالتَّحـريرِ وَالعَـوْدَة.. يَراهـا لا فِي أَحْلامِـهِ وَلٰكِنْ فِي يَقـظَتِهِ العُـظْمى، يَعيشُ فيها وَمَعهـا. إِنْ لَم يَكُنْ مَعَـكَ هٰـذا الإيمـانُ فَـلا تَتْبَعني. لا يَتَعـذَّبُ مَعَنـا في هٰـذا الإِيمـانِ إِلّا المُؤْمِنون، وَلا يُحِسُّ بِنا إِلَّا المُعَذَبون.

إِنَّهُ فَلاح، وَمِنْ هُنا كَان عِشْقُهُ حَتَّى التَّوَحُّـدِ وَالانْدِمـاجِ فِي تُـرابِ الأَرْض. إِنَّهُ يَـرى، نَعَم يَرى أَعْمِـدَةَ المِلْحِ الصَّامِتَـةَ التي تَفْرِضُ الصَّمْتَ حَتى المَوْت، وَلٰكِنَّ الشَّـاعِرَ مَـع ذٰلِكَ يَغُـوصُ فِي غابَةِ النُّجومِ، يَقْطِفُ أَقماراً سَوْداءَ وَزَرْقاءَ وَحَمْراءَ وَيَنْثُـرُها. تِلْكَ «المَصابِيحُ» لَم تَعُد لَنا... لَيْستْ مِنَّا... بَقِيَ لَنا العَويلُ وَحْدَه!

دَمُ الفِلسـطينيِّ صَـارَ الشَّـرابَ اليَـومِيَّ لِكُـلِّ الحُكَّـام... الشَّعاراتُ خُيولٌ مِنْ غُبـار... الأَبْطالُ نُمـورٌ مِنْ وَرَق... الثُّوارُ «دُون كِيشـوتِيُّـون» يُحـارِبـون أَنْفُسَهُم، فِي حَين تَهْـوي القَنـابِـلُ

الصِّهْيَونيَّةُ عَلىٰ رُؤوسِ الجَميعِ دُونَ تَفْريق، وَمِنْ هُنا كانَ إِيمانُ الزَّواتي بِالتَّحريرِ وَالعَوْدَة.

كُلُّ خُرافَاتِ اليَهودِ التي بَنَوْا عَليها «حُكومَتَهُم» العابِرَةَ آحْتَرَقَت. لَمْ يَبْقَ مِنهَا شَيء! طَارَت قَضِيَّةُ الشَّعْبِ «المِسكينِ المُضْطَهَد». آنْكَشَفَتْ مُبالَغاتُ «الهُولُوكوسْت» المُرْعِبَة. كَذَّبَ «الأَطْفالُ» أُسْطورَةَ «أَرْضٍ بِلا شَعْبٍ لِشَعْبٍ بِلا أَرْض». نَسَفَ العِلْمُ أَباطيلَ التَّوراةِ وَالوَعْدَ الإِلٰهيَّ المَكْذُوبَ عَلىٰ الله.. آفْتَضَحتِ «الدِّيمقراطيَّةُ» الَّتي تَقومُ فِي بَحْرٍ مِن الدِّكْتاتُوريَّات.. إِنَّ اليَهودَ يَبْنونَ اليَوْمَ خُرافَتَهم بِجُثَثِ الأَطفالِ وَالحِجَارَة. يَمْلأونَ الدِّنانَ بِالدِّماءِ الحارَّة، كُلَّما فَرَغَتْ جَدَّدوا لَها دِماءً أُخْرىٰ... يَتَلَذَّذُونَ بِرَائِحَةِ اللَّحْمِ البَشَريِّ كَما عَلَّمَهُم الإِلٰه «يَهْوَه». نَبَتَتْ لَهُمُ الأَنْيابُ الذِّئْبِيَّةُ التي صَارَ يَعرِفُها كُلُّ البَشَر... عُراةً يَقِفونَ الآنَ، كَالرَّجُلِ الوَحْشِ البِدائيِّ وَبِيَدِهِ عَصاتُهُ الضَّخْمَة. وَما الَّذي يُقَرِّبُ رُؤىٰ العَوْدَةِ وَالتَّحريرِ إِلَّا هٰذا؟

وَيَقولون: اتْرُكْ وَطَنَكَ لِلغُرَبَاءِ الوُحوشِ نَقْبَلْكَ فِي «نَادِي العُقَلاءِ»، فِي مُجتَمَعِ الوَاقِعيين، وَاللَّاإِرْهابِيين. وَيَحِنُّ الجُنُون! أَحينَ آقْتَرَبَتِ القَضِيَّةُ مِنْ جَانِبٍ تُفْلِتونَها مِنْ جانِب؟ إِنَّهُم يَسرِقونَ الحُلُمَ مِنْ عَيْنَيْكَ بِآسْمِ «العَقل»، يَضِنّونَ عَلَيْكَ حَتّى بِالحُلُم..

لأَنَّ الحُلُمَ أَكْبَرُ الحَقائِق !

* يا ثَوْرَةَ الأَطْفالِ يا تاجَ الفِدا
ما ضَرَّني أَنِّي أُقاتِلُ حافِيا
فَجَّرتُ في وَجْه الظَّلامِ قَصائِدي
وَقَبَسْتُ مِنْ لَهَبِ الدِّماءِ غِنائِيا
إِني تُمَزِّقُني قُيودي فِي يَدي
وَأَظَلُّ رَغْمَ القَيْدِ أَصْدَحُ شادِيا
حَرَقوا حُروفي في فَمي وَأَصابِعي
فَكَتبتُ بالأَهْدابِ لَحْنَ بِلاديا
يا سَيِّدَ الثُّوارِ يا طِفْلي الَّذي
قَهَرَ الحَدِيدَ مُجاهِداً وَمُلاقِيا
حارَبْتَ مَن عَجِزَ الأُلى عَن حَرْبِهم
جَيْشا خُرافِيا وَحُكْماً طاغيا
إِنْ يَجْنَحوا لِلسَّلْمِ فَآبْرأَ مِنْهُمُ
وَآجْنحْ إِلىٰ الأَحْجارِ وَآرْمِ البَاغِيا

إِنَّ التُرابَ يُنادي الدِّماءَ فِي الشَّرايين، كَما تُنادي الدِّماءُ التُّراب، وَهٰذِهِ جَدَلِيَّةٌ أُخْرىٰ. الزَّيْتونةُ والتَّنورُ والبيَّارَةُ وَالفَأْسُ لَيْستْ هِيَ الَّتي تُنادي، التُّرابُ هُوَ الَّذي يَفْعَل... يَصْرُخُ لِتَلتَقيَ

صَرْخَةُ الشَّاعِرِ فِي المَدىٰ اللَّانِهائِيِّ لِلتَّأْريخ. وَهُوَ الَّذي يَتَلقىٰ النِّداء. وَالشَّاعِرُ الزَّواتِيُّ يَعْرِفُ مَعَ أَيِّ جَبْهَةٍ يَلْتَصِق...

إِنَّهُ الوَحيدُ الَّذي لَا يَسْأَل: إِلى أَيْن ؟

كُوفادِيس ؟

وَبَعْد...،

فَهٰذِهِ الصَّفْحَاتُ مٰا سَبَق مِنْهَا وَما سَوْفَ يَلَحقُ لَيْسَت مُقَدِّمةً لِهٰذِه الأَعْمالِ الشِّعْرِيَّة، وَلا دِراسةً فِيها، وَلٰكِنَّها هِجْرَةٌ فِي الجُرْح. وَالهِجْرَةُ فِي الجِراحِ غَابَةٌ مِنْ نَارٍ لا يَنْقَضي لَهيبُها الأَبَدِي، لٰكِنَّها النَّشيدُ الوَحيدُ للمُعَذَّبينَ فِي الأَرْض، وَإِنْ تَكُن كَمَسامِيرِ الحَديدِ في جَسَدِ المَصْلوبْ !

شاكر مصطفى